روايات مصرية للجيب

48

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق



اللُّغز

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها عالم

المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل ونحن معها العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

1ـ كارثــة ..

اسمه (زيد) .. وهو عبقرى ..

(صفوت) قال ذلك .. و (صفوت) عبقرى ..

عندما اتصلت به ـ (زيد) ـ فى الموعد ، كان عليها أن تطلب الرقم ست مرات ، وفى النهاية أرسلت له رسالة قصيرة تتوسل له أن يرد .. عندما فعل ذلك سألها من هى ..

قالت له إنها (عبير) ..

ـ « بخصوص جهاز الكمبيوتر الذى .. »

ـ « يمكنك أن تحضريه غدًا .. أنت تعرفين العنوان فيما أظن ؟ »

وكاد يغلق الخط ، هنا تصاعد الدم إلى رأسها .. إنه لا يذكر أى شىء عن الموضوع ويتكلم ببرود مهنى يثير الغيظ .. يثير الجنون ..

ـ « لكن الجهاز عندك فعلاً ! »

ساد الصمت ، ثم سمعت صوت القداحة الشهيرة .. كليك .. كلاك ! ثم :

ـ « قلت لى ما مشكلته ؟ »

اسمه (زيد) .. وهو غبى .. غبى ، وهى أكثر غباء عندما تصورت أنه عبقرى ..

أخيرًا بعد بضع دقائق آمنت بأنه لا يوجد مستحيل .. لقد تذكر القصة كاملة ، ولكنه لم يفعل شيئًا بعد .. هذا واضح ..

ـ « سوف أسهر عليه الليلة .. صدقينى .. »

ـ « هذا هو نفس الوعد الذى تلقيته أمس .. »

ـ « آسف .. لكنها تلك الأشياء .. أنت تفهمين .. »

كلا .. لا تفهم .. مهما كان الطبيب صادق الضمير متحمسًا فإنه يبدو باردًا ثخين الجلد بالنسبة لأهل المريض المحتضر .. فماذا عن الطبيب الذى لا يذكر المريض أصلاً ؟

ـ « والحل ؟ »

ـ « كلمينى فى الصباح .. »

لم يكن لديها من حل آخر .. سوف تنام وهى تغلى غيظًا .. ترى متى يوجد الزر الذى تضغط عليه فتمر عشر ساعات من حياتك فى لحظة ؟ قمرة الغاز التى يدخلها رواد الفضاء ليدخلوا فى غيبوبة مدتها عامان ، وعندما يفيقون يكون كوكب (عطارد) على شاشات المراقبة ؟

لا يوجد حل آخر ..

* * *

اسمه (زيد) وهو ممن يصحون عند الظهيرة ..

هذا ما عرفته بعد أن طلبت الرقم ألف مرة ..

صوته الناعس مع الكثير من التثاؤب .. لابد أنـه فى الفراش الآن يحك صدره العارى بأظفاره كأنه مصاب بالجرب .. لابد أن رائحة النوم تنبعث من أنفاسه .. لابد أنه يتحسس عويناته الموضوعة على الكومود .. لابد أنه يبحث عن ..

كليك .. كلاك !

القداحة .. لفافة تبغ فى الفراش كما توقعت تمامًا ..

ـ « الكمبيوتر .. الكمبيوتر الخاص بى .. (عبير عبد الرحمن) أنا .. »

ـ « نعم .. نعم .. لم أنس .. »

ثم تثاءب من جديد وأضاف :

ـ « لابد من تغيير القرص الصلب ! »

صاحت فى جنون :

ـ « والبرامج الموجودة فعلاً ؟ »

ـ « أعتقد أنك ستفقدينها .. »

ـ « لكنك وعدت بالعكس .. »

ـ « وعدت بأن أحاول .. وقد فشلت . هذا واضح .. »

ثم تثاءب من جديد ، وأردف :

ـ « ظللت أجرب كل شىء حتى الرابعة صباحًا .. لا أجد حلاً .. هيه ؟ ما رأيك ؟ هل أقوم بتغيير القرص ؟ هناك نوعان فى السوق فى الوقت الحالى .. أنا أفضل طراز .. »

وراح يصف لها مزايا وعيوب كل نوع ، بينما هى لم تكن تصغى على الإطلاق .. وقفت تعتصر جهاز المحمول الذى كانت تتكلم منه عند بائع التبغ ، وبدأت دمعة غيظ وعجز تفر من عينيها ..

لقد انتهت (فانتازيا) .. لا شك فى هذا ..

قد قال لها المرشد فى المرة السابقة :

ـ « الحقيقة أننى أجدر منك بالقلق والضيق .. من دون (فانتازيا) لا وجود لى على الإطلاق .. أنا كائن صنعه خيالك ومن دون خيال ينتهى أمرى .. أنت تتحدثين عن فقدان الحلم .. وأنا أتحدث عن فقدان الوجود .. »

هل كانت هذه نبوءة ؟

نظرة شك من البائع ، والسبب أنها لا شعوريًا ابتعدت كثيرًا جدًا عن مجلسه ، حتى صارت تقف على الناصية النائية .. فى النهاية سمعته يصيح فى خشونة :

ـ « إلى أين يا آنسة ؟ لو سمحت لا تبتعدى كثيرًا .. »

نظرت له فى عدم فهم فأردف بلهجة من لا يقبل الخداع :

ـ « منذ شهر فعلت آنسة مثلك الشىء ذاته ثم وثبت إلى أول سيارة أجرة مارة ، وفقدت أنا جهاز (الموبايل) .. المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وأنا مؤمن .. صدقينى .. »

وربتت امرأة عجوز مفعمة بالأمومة على كتفها ، وهتفت :

ـ « لا تبكى يا حبيبتى .. غدًا يأتيك سيد سيده ! »

ـ « من هو ؟ »

ـ « هذا الوغد الذى أبكاك ! »

صاحت (عبير) فى الهاتف لتنهى الموقف :

ـ « لا تستبدل القرص الصلب .. سأتصل بك ثانية .. أبق الكمبيوتر عندك ! »

ثم ناولت الهاتف للبائع ونقدته ماله ، بينما قالت للعجوز مفسرة :

ـ « يريد أن يستبدل القرص الصلب ! لكنى لن أسمح بذلك . »

قالت المرأة ، وهى تمصمص بشفتيها :

ـ « النذل ! كل الرجال سواء ! فلتأخذه مصيبة ! »

ثم انصرفت وهى تنعى ضياع الأخلاق .. بالطبع لا تفهم حرفًا مما قيل لكنه سيئ بما يكفى .. على الأقل هى متأكدة من أنها عندما كانت شابة لم يكن الرجال يستبدلون القرص الصلب أو يفكرون فى ذلك .. أبو (وداد) رحمه الله عاش ومات دون أن يستبدل القرص الصلب ولو مرة واحدة ..

ووقفت (عبير) للحظات غير عارفة ماذا تفعل .. إلى من تذهب ؟ ما أكثر القرارات حكمة ؟

لم تكن سريعة البديهة قط ، وكانت تحتاج إلى أن تنام ليلة كى تتدبر أمرها وتتصل إلى قرار صحيح فى أى شىء ، لكنها فى هذه المرة وجدت الجواب بسرعة البرق ..

ربما وجدته والعجوز تكلمها .. ربما وجدته قبل أن تجرى المكالمة الأخيرة مع ذلك الحمار الذى يكسو الشعر أحد ساعديه فقط .. كان الجواب هو (شريف) !!!!

* * *

2ـ اللغـز..

تقف وحدها وسط العاصفة تتساءل عما أتى بها هنا ..

يقترب منها المرشد وهو يضم سترته على صدره اتقاء البرد ، ويقول باسمًا :

ـ « صرت بارعة فى المجىء من دون جهاز ! »

قالت وهى تضم ثوبها على جسدها كذلك :

ـ « لا أدرى ما حدث .. اتخذت قرارًا بالاتصال بـــ (شريف) لكنى لم أجسر على تنفيذه .. اضطجعت على الأريكـة بعد الغداء وأنا أفكر فى الأمـر ، وكـانت (شذى) بجـوارى تلعب وتقرقـر ، وفجأة .. لابد أننـى نمت وأنـا غارقـة فى التفكير .. إن التفكير والحلم يأتيان مـن ذات المصنـع ويلعبان بـالقواعد ذاتهـا .. فقط أحدهما إرادى والآخر لا .. يبدو أننى حلمت ، وأننى انتقلـت إلـى (فانتازيا) لا شعوريًا .. »

بلهجة من لا يسمع جديدًا قال :

ـ « صار هذا مملاً .. الحلم هو طريقة التنفيث عن الرغبـات المكبوتـة .. نمت مشتاقة إلـى (فانتازيا) فجئت (فانتازيـا) .. المشكلة أن هذه الطريقة ليست مضمونة النجاح .. »

ثم أضـاف :

ـ « موضوع الاتصال بـ (شريف) هذا .. يبـدو قـرارًا ثوريًـا بحق .. هناك عدة عوائق منها أن يكون سمجًا ، ومنها أن يكـون مسافرًا خارج البلاد ، ومنها كرامتك الشخصية .. »

قالت كأنها تقنع نفسها :

ـ « لا أعتقد أنه سيرفض هذا الطلب .. ليس طفلاً سخيفًا لهذا الحد .. أما كرامتى الشخصية فسأعرف كيف أطلب منـه هذا الطلب دون أن أريق شـيئًا منهـا .. لا يجـب أن أتمـرغ علـى الأرض ، وأبكى وألثم قدميه .. هناك سبل عدة لطلب الشىء بكبرياء كـأنك تمنح ولا تطلب .. »

قال فى خبث :

ـ « أنت أدرى على كل حال .. إنه عالم الواقع الذى لم أتعامل معـه فقط .. أعرف كيف أتعـامل مـع (هانيبـال) و(عنـترة) و(راسكولنكوف) و(آنا كارنينا) ، لكنى لا أملك أدنى فكرة عن طريقة التعامل مع السباك أو محصل الكهرباء .. »

- « أنا لا أختلف عنك كثيرًا وتلك هى مشكلتى .. كنت أقرأ الأدب ويُخيَّل لى إننى قادرة على أن أقنع (سقراط) بما أريد ، لكنى لم أستطع إقناع أمى قط بأننى غسلت يدى قبل الأكل .. يمكننى التفاهم مع (أرشميدس) لكنى عاجزة عن التفاهم مع موظف السجل المدنى .. »

ثم تذكرت خيط الكلام ، فقالت فى كبرياء :

- « لكنى حتمًا قادرة على التفاهم مع (شريف) .. »

- « ليكن .. مرحبًا بك فى فانتازيا . »

نظرت حولها إلى الوادى الخالى الذى خلا من كل شىء إلا من نباتات شوكية تتقاذفها العواصف .. وسحائب صغيرة من الغبار تحلق من هنا لهناك ..

- « ما هى هذه القصة ؟ هل نحن فى قصيدة (الأرض اليباب) لـ (إليوت) ؟ »

نظر حوله ثم ابتسم بخبث ، وقال :

- « لا .. أعطينى المزيد من التخمينات الذكية .. »

- « هل نحن فى تجربة (ناجازاكى) هذه المرة ؟ »

- « لا .. جربى شيئًا آخر .. »

- « قصة (على الشاطئ) لـ (نيفيل شوت) ، أو أية قصة من عشرات القصص التى تحكى عن بقاء بشرى واحد حيًا بعد الدمار النووى ؟ »

- « لا .. هل من محاولات أخرى ؟ »

قالت فى غيظ :

- « أنت رائق المزاج ، وأنا لست كذلك .. فلتقل اسم القصة وتنتهى الأمر .. »

قال دون أن ينظر لها :

- « هذه هى المشكلة .. أنا لا أملك أدنى فكرة عن هذه القصة !! »

* * *

- « هل تمزح ؟ »

قال وقد بدا لها عاجزًا مرتبكًا للمرة الأولى منذ عرفته :

- « هناك الكثير من الخلط .. الكمبيوتر تالف وأنت تعتمدين على الجهود الذاتية .. هناك الكثير من الارتباك فى عقلك الباطن .. لا يوجد حجر فوق حجر .. النتيجة هى أن المغامرة قد بدأت لكنى لا أملك أى تصور عن موضوعها .. »

- « إذن أنت لم تعد قابلاً لإرشادى .. »

- « هذا ما يبدو .. »

- « إذن أنت مفصول .. »

ـ « ربمـا سرك هـذا .. لكن الأمـور ليست بهذه السهولة .. أنا جـزء مـن عقلك البـاطـن قبـل أن أكـون موظفًا عنـدك .. لا يمكنك التخلص من جزء من عقلك الباطن وإلا لصارت الحياة أجمل من أن تكون حقيقيـة .. كـان بوسعنا التخلص من كـل عقدنا وتجـارب الطفـولة التى مـا زالت تعذبنـا بعد بلوغنـا السبعين .. »

تنهدت ونظرت حولها وهى تشعر أن الطقس يزداد برودة فعلاً .. ثم قالت :

ـ « إذن أنت غير قادر على معاونتى فى شىء .. »

ـ « هذا هو الواقع .. غير أن لدى ورقة واحدة هى أن بوسعى أن أقترح عليك حقيقة المغـامرة .. سنرى مـا تقود لـه الأحداث ونستنتج .. »

ـ « وماذا لو كانت هذه مغامرة لم أقرأها من قبل ؟ »

ـ « مستحيل .. وإلا فمن أين جاءت ؟ »

قالت فى امتعاض :

ـ « هـذا ليس عـدلاً .. لابـد مـن فكـرة مبهمـة عامـة عمـا سأمر به .. »

ـ « ليست الحياة مطعمًا حريصًا على إرضاء الزبائن لو لاحظت هذا .. إن من بتر لغم ساقيه ، والطفل الذى يرتجف فى برد الليل جوار جدار مهدم لم يحبا أن يكونا فى هذا الوضع ، لكنها الحقيقة .. »

صمتت ..

إذن هذه هى اللعبة ..

أن تجد نفسها فى مغامرة لا تعرف ما هى وعليها أن تستنتج ..

المشكلة الأخرى والأهم هى أن تعرف كيف تعود من هـذا العالم .. ربما كان هذا عسيرًا كذلك .. لكنها تقبل المخاطرة على كل حال .. حتى لو لم تقبل فماذا بوسعها أن تفعل ؟

* * *

3ـ ميديفـال !

جيش المعتدين يتقدم على خط الأفق .. فجأة يتحول الأفق إلى رءوس مدرعة ورماح مشهرة .. مع الكثير من الهتاف الذى تترجرج الأرض من هوله ، كأنه تأثير (الدولبى) فى دار عرض حديثة .. الهدير الذى يجعل معدتك تتقلص ، وقلبك يفوّت ضربات ..

ـ « هورررررررراه ! »

جيش المعتدين يقترب ، ورائحة الحرب والموت فى الهواء ..

ومـن بيـن الصفـوف تـبرز الأبـراج العملاقـة .. الأبـراج المخصصة للالتحام بأسوار القلعة ..

وراء الأسوار يقف القائد العظيم ملوحًا بسيفه ..

يركض هنا وهناك على صهوة حصانه الأبيض .. يتفقـد رماة السهام .. يتفقد الفرسان .. يتفقد حملة الرماح ..

كل الرماة يصوبون السهام إلى أعلى منتظرين أوامر القائد كى يتخلوا عن الزناد ، وتحلق أمطار الهول فوق الرءوس ..

كل شىء يبدو على ما يرام ، لكنه كان خبيرًا بالحروب .. ويعرف كيف يمكن أن ينهار هذا كله فـى ثانيـة واحـدة .. نظريـة تداعـى

قطع الدومينو .. إن هذه الجيوش تبدو رائعة على الـورق فقط ، لكن المقياس الحقيقى هو ما سيحدث عندما يندفع ذلك السيل العرمرم بينها ..

* * *

وفى خدر النساء كان جو التوتر يأخذ بالقلوب ..

النسوة جالسات ينظرن للسقف ، وبعضهن اتخذ أوضاع صـلاة على الركبتين تذكرك بصور عصر النهضة ومادونـات (رافاييل) .. طفلة تبكى .. طفل يرتجف .. صوت بطن يتلوى انفعالاً .. لابـد من كثير من الاضطرابات الهضمية فى هذا الجو ..

وتنظر النسوة إلى باب الخدر الذى وقفت عليه جاريـة حبشـية تحاول أن تعزف على الهارب لتبدد القلق .. يظهر القـائد العظيم الذى طالما تنافسن عليـه فيمـا سبق ، والـدروع تغطيه .. ينظر لهن نظرة ذات مغنى ، ثم يتنحى ليظهر فى مجال الرؤيـة قـائد آخر تحت إمرته .. قائد أشقر ملتح ، له عينان تشع منهما النيران ..

يقول القائد الكبير وهو يرمق النسوة :

ـ « لو سقطنا واندحرنـا فلا أريد لنسائنا وأطفالنا أن يصيروا سبايا .. أريد أن تذبح كل طفل وامـرأة فـى هـذه القاعـة يا سير (ونسلوت) ! »

هز الأشقر رأسه بما يوحى بأنه سينفذ الأمر حرفيًا ..

كانت (عبير) جالسة على الأرض على إحدى الطنافس ، وقد أراحت فتاة أخرى رأسها على فخذها .. وضع لا مبرر له مع كل هذا التوتر ، لكن خيالها كان يقلد كل ما يعرفه عن مخادع النساء وأجنحة الحريم فى الفن العالمى .. (ديلاكروا Delacroix) هو فنان فرنسى تخصص فى هـذه الأجـواء ، لكن (عبير) لا تتذكر الأسماء على كل حال . لا تذكر أى شـىء بإرادتها ، فقط تأتيها الأفكار بأسلوب تداعى المعانى ..

شعرت بغيظ لهذا الموقف ..

النساء ينتظرن هنا إلى أن يأتى لهن الرجال بالنصر أو الموت .. فى كل الأحوال هن كائنات مخصصة للترفيه عن الرجل ولا دور لها فى تحديد مصيرها .. نفس الكلام ينطبق على الدجاج .. الدجاج خلق للترفيه عن الرجل ولا دور له فى حياته أو موته ..

ومن قال إن الرجـال سيجيدون الدفاع عن القلعة ؟ من قال إنهم ليسوا حمقى أغبياء ؟

ربما لو سُمح للنساء بالخروج والاشتراك فـى المعركـة لاستطعن تحقيق نتيجة أفضل ..

فجأة ارتجت القلعـة .. وعرفـت (عبـير) أن أولـى قذائـف المنجنيق هوت فوقها ..

لقد بـدأ قذف المنجنيق ولسوف يستمر بعض الوقـت ، ثـم يصرخ الرجال صرخة واحدة وينقضون على القلعة ..

بووم ! قذيفة أخرى !

فعلاً هذه هى مدفعية العصر .. إنها فى مكان مأمون لكنها تسمع صوت صراخ الرجال فى الخارج .. نار ودخان وفوضى ..

سوف يتم اقتحام القلعة .. تعرف هذا .. كل القلاع تسقط فى النهاية مهما كانت بسالة قائديها ، ويبدأ مسلسل النهب والسلب و(بقر بطون الحوامل وذبح الأطفـال والأخـذ بلحـى الشـيوخ الأجلاء) كما تصر كتب التـاريخ على أن تصف أية مذبحـة .. سوف يكـون هنـاك ما هـو أبشع ؛ لهذا تدعو اللـه ألا يبتعد الأخ (لاسـلوت) كثيـرًا .. يجـب ألا تسـقط حيـة فـى أيدى هـؤلاء ..

يتواصل قذف المنجنيق ، ثم تدوى صرخة واحدة من عشرات الحناجر .. هذا هو الانقضاض ..

لم تسـتطع أن تظـل جالسـة حتى تجدهم يقفون عند رأسـها كما حدث مـع (أرشميدس) .. يجب أن تتـابع الحـدث لحظـة بلحظـة ..

هكذا نهضت مسرعة واندفعت نحو الباب ..

سألتها حسناء كانت جالسة على الأرض تغسل قدمى حسناء أخرى :

ـ « إلى أين يا (تريستان) ؟ »

قالت وهى تزيح الستائر :

ـ « لو بقيت هنا سأجن .. يجب أن أرى .. »

ـ « لكنه الموت .. سوف يهوى حجر مشتعل فوقك .. »

ـ « من يدرى .؟؟ قد يكون هذا أفضل ! »

وتسللت (عبير) عبر ممرات ضيقة لا تضيئها إلا مشاعل معلقة .. بعد دقائق سوف تصير هذه الممرات مزدحمة كأنها أتوبيس (305) ساعة الذروة ..

الكل على السطح الآن .. الكل متحفز .. الأدرينالين فى ذروة تدفقه حتى إنه يمكنك أن تجمعه فى دلو وتبيعه لناقصى الهمة ..

هناك درج تصعده وهى تعلم خطر ذلك .. لو هوى شىء هنا والآن فلن تعرف أن هذا حدث .. ستموت قبل أن تعرف ..

لكنها إذ نظرت إلى السماء رأت آلاف السهام تحلق فوق الرءوس كأنها أسراب جراد ، كلها تتجه نحو جيش الأعداء .. الكرَة كرَتنا إذن .. دفقة سهام ثانية .. ثالثة ..

ترى هل لها تأثير ؟ لا أحد يعرف سوى من سقطوا بها .. أولئك الذين انتهت الحرب بالنسبة لهم عند هذا الجزء ، وهم يهوون على ركبهم بين الأقدام .. أغلبهم لن يقتله السهم لكنه سيموت مهشمًا عندما يدوس عليه إخوان السلاح ..

وتنظر لساحة الوغى من بعيد فترى أن الأبراج تقترب فى ثبات .. توشك على الالتحام بالأسوار .. سوف يموت أول مائة من المهاجمين .. ربما يموت غيرهم ، لكن النهاية واحدة على كل حال .. سرعان ما يتمكن البعض من الوثب فوق الأسوار .. وبينما ننشغل بهؤلاء يثب سواهم من فوق السور .. الحرب فى القرون الوسطى كانت تقوم على أن يهاجمك ألف فارس .. تقتل ثمانمائة منهم ، لكن مائتى فارس يصلون لك ويجزون عنقك ..

تدقق النظر أكثر فترى من بعيد قائد الجيش المهاجم يصدر أوامره لرجاله ..

مستحيل !

هذا ليس بشريًا !

إنه كائن يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار .. ووجهه أبعد ما يكون عن أن يكون آدميًا .. إنه مشقق مليء بالبروزات والأخاديد وهناك ممصات لا حصر لها تتدلى منه فى جشع .. وهذه الممصات تفتش بلا توقف عن شيء تثبت نفسها عليه ..

ما معنى هذا ؟

لقد رأت مشهدًا مماثلاً فى فيلم (سيد الخواتم) ، وإن كانت لم تقرأه لأنها لا تجيد الإنجليزية إلا فى فانتازيا .. هل يعنى هذا أنها فى قصة (سيد الخواتم) ؟ أرض (تولكين Tolkien) الوسيطة المليئة بالأقزام والهوبيت ، والتى يهيم بها البعض حبًا ، ويراها البعض خيالات فارغة لا تستأهل أن تمنحها ذرة اهتمام أو وقت .. من المستحيل أن تتعاطف مع بطل قصة لا تتماهى معه ، ولا يعنيك فى شيء أن ينتصر أو يذهب إلى الجحيم ..

لكن لم يكن المشهد كذلك بالضبط .. هناك اختلافات كثيرة ..

(برايان لوملى Lumley) كاتب الرعب البريطانى له عوالم مماثلة .. مصاصو الدماء الذين يشبهون سادة القرون الوسطى

ويفعلون مثلهم بالضبط ، لكنهم كذلك يمتصون الدم .. ولا غرابة فى أن (لوملى) أعلن مرارًا أنه تأثر بـ (تولكين) .. هل هذا عالم (لوملى) إذن ؟

الأشقر كان اسمه سير (لانسلوت) ؟ (لانسلوت) و(كاميلوت) وجو الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة .. من الممكن أن يكون هذا هو الجواب .. وماذا عن مصاصى الدماء يا بنت يا (عبير) ؟ لا .. ليست هذه إجابة على الإطلاق ..

لكن هناك أبراجًا .. أبراجًا عملاقة لا يؤثر فيها اللهب .. هل نحن قريبون نوعًا من عوالم (صلاح الدين الأيوبى) ؟ فى هذه الحالة يصير الفهم عسيرًا .. لو كان الصليبيون هم المهاجمون فلا يمكن أن يكون الذين تقفين بينهم الآن عربًا .. هل كان بين الصليبيين مصاصو دماء ؟ مصاصو دماء بالمعنى الحرفى لا المجازى ؟

ثم .. لحظة واحدة من فضلك ..

يبدو أن هذا الحصار سيؤدى إلى أن يقتل المحاصرون أنفسهم .. هل هذه القلعة هى (الماسادا) ؟ إذن هى يهودية ؟ لكن المهاجمين ليسوا رومانًا وهى خبيرة بالرومان بعد ما واجهتهم مرارًا فى فانتازيا ..

اسمها (تريستان) .. ربما لم يكن هذا اسمًا عارضًا .. مـاذا عن أسطورة (تريستان وأزولد) الجرمانية ؟ أليس هذا واردًا بشدة ؟

هل هذا هو ما قصده المرشد ؟ هل هذا هو الوضع المحير عندما تجد أنها عاجزة عن معرفة مكانها ؟ إن رأسها يكاد ينفجر ، وفى كل مرة تحملها الأسئلة إلى نقطة البداية .. هل هذا عالم (سيد الخواتم) ؟ إذن .. إلخ ... إلخ ... (تريستان) ؟

وبينما هى غارقة فى هذه الأسئلة شعرت بألم حارق فى قدمها ..

نظرت لأسفل لتجد أبشع كوابيس طفولتها قد تحقق .. سهم سقط عموديًا ليخترق قدمها ويثبتها فى الأرض بحيث عجزت عن الحركة تمامًا !

* * *

4 ـ فارس وسيم وبعض القنزعور ..

الكثير من الألم .. الخوف من مضاعفات جرح كهذا .. ترى هل يسهل الإصابة بالكزاز (التيتانوس) ؟ سؤال سخيف طبعًا .. هى ليست ذات خبرة طبية لكنك تحتاج إلى أن تعيش فترة كافية كى تجد الوقت الكافى للإصابة بأى مرض على كل حال !

أنا لا أضمن لـ (عبير) الحياة ساعة أخرى .. نصف ساعة .. بل بضع دقائق وسط هذا الهول ..

لقد التحم أول الأبراج بالسور ، وكان انطباقه متقنًا بحق كأنه قد خلق ليوضع هنا ، ووثب منه عشرة من الجنود .. كما توقعت طارت أعناق هؤلاء بسهولة تامة ..

الزيت المغلى ـ الصديق الصدوق لقلاع القرون الوسطى ـ يُحمل فى جرار عملاقة إلى الحراس الواقفين على الأسوار فيسكبونه على رءوس المهاجمين .. لا تسمع سوى صوت الـ (طش ش ش ش !) ثم يتعالى الصراخ المريع ..

رباه ! كانت الحروب تقتضى شجاعة لا بأس بها فى تلك الأزمنة ..

كانت تقف هناك وقدمها مثبتة فى الأرض ، تنتظر مصيرها كبطة فخور .. لولا ذلك الفارس المدجّج بالدروع ، والذى يغطى

وجهه قناع من الجنازير والسلاسل ، والذى رأى موقفها المثير للشفقة فصاح فى قلق :

ـ « بحق فرسان المائدة المستديرة ! إنك لفى مأزق مخيف ! »

ابتسمت (عبير) فى وداعة بما يعنى أنها تعرف حقيقة وضعها ..

فرسان المائدة المستديرة ! لقد انتهى سعيها إذن .. (جوينيفير) زوجة الملك (آرثر) التى تحب (لانسلوت) .. قصة معروفة .. مملة لكنها معروفة على الأقل ..

ركع على الأرض ورفع قدمها قليلاً ، وأولج نصل السيف بين الأرض والقدم .. فى النهاية استطاع أن ينزع القدم بالسهم الذى يخترقها عن الأرض كأنه ينزع سدادة زجاجة مياه غازية .. وقال فى رضا :

ـ « يمكنك أن تكملى الباقى ! »

وسرعان ما تركها ، وانطلق يواجه المتسلقين على الأسوار !

يا له من فارس مهذب ! أعطاها حرية الحركة لكنه لم يعطها القدرة على المشى ! وإذا حسب أنها قادرة على انتزاع السهم من قدمها بقوة قبضتها فهو واهم ! ربما كانت النساء فى ذلك العهد قويات القبضات والأعصاب ، لكنها ليست كذلك !

تدحرجت على الأرض إلى أن بلغت الدرج الذى صعدت عليه ، ثم تدحرجت نازلة بينما صوت الصراخ والطعان يتعالى من حولها .. فى هذا السيرك لن يشعر بك أحد مهما فعلت ..

هناك فارس يصعد إلى أعلى شاهرًا سيفه ، والطريف أنه وثب من فوق جسدها كأنها كيس قمامة ، وجرى لأعلى ..

الأمور تسوء وواضح أن لحظة انهيار السد دانية ..

صوت يصرخ من أعلى :

ـ « تماسكوا ! إلى يا رجاااااااااااال ! »

فى هذه اللحظة لم تدر إلا وذراع قوية تحملها لتوضع فوق كتف أقوى ، وسرعان ما وجدت أنها تحمل حملاً إلى مكان ناء مظلم .. رطوبة .. صهيل مكتوم لخيول .. رائحة عطن قوية ..

إنها تلقى على صهوة حصان كأنها كيس من الغلال ، ثم تسمع ذلك الرجل القوى يقول لها فى الظلام :

ـ « أريد أن تتماسكى بعض الوقت أيتها اليهودية الحسناء .. لا وقت لانتزاع هذا السهم الآن .. »

ثم هو ذا يثب إلى الحصان ذاته .. ويضربه فى خاصرته ، فينطلق الحصان وسط ممرات مظلمة .. واضح أنها مبتلة كذلك لأن (عبير) تسمع صوت خطواته تبعثر الماء ..

يهودية حسناء ؟ لا .. ليست قصة الماسادا إذن .. هناك موقف شبيه بهذا فى رواية عملاقة قرأتها منذ أعوام برغم ما فيها من ملل .. (إيفانهو) .. قصة سير (والتر سكوت) .. فهل هذا ما يحدث الآن ؟

تجربة عجيبة هى أن ترى العالم وأنت نـائم على بطنك بـالعرض فوق خصر حصان .. ترى أقدام الحصان وترفع عينك من آن لآخر لترى الأرض تجرى ، لكنك لا تستطيع أن تقوس ظهرك أكثر من هذا .. الوثبات والاهتزازات توشك على أن تجعلك تفرغ أمعاءك وربما رئتيك وربما روحك ذاتهـا فى أية لحظة ..

« أنت لست زبونًا فى مطعم .. »

قالها المرشد من قبل وكان دقيقًا إلى حد لا يوصف .

الأمر على كل حال هين .. واضح أن هذا الفارس قد فر بها عبر ممرات سرية خارجًا من القلعة المحاصرة ، وربما من البلدة ذاتها ..

لكن من هو ؟ يصعب أن تعرف من هو وهى فـى هذا الوضع كأنها خروف مسوق إلى الذبح أو كيس من اللحم ..

سمعته يقول :

ـ « كان من حسن الحظ أننا اخترنا الفرار الآن .. »

وترفع رأسها قليلاً وتنظر إلى الوراء ، فترى أن الأفق تحول إلى شعلة من النيران والدخان الأسود .. المكان الذى كانت فيه تلك القلعة يعلم الله ما اسمها صـار محرقة .. والمحرقة سوف تغدو رمادًا بعد قليل ..

ترى هل هلكوا ؟

(ونسلوت) .. هل ما زال هناك ؟ وماذا عن باقى الحريم ؟

أوقف الفارس جواده وترجّل .. وشعرت بيده القوية تمسك بقدمها .. ثم .. آى .. أعنف ألم يمكن وصفه .. آى .. أوه .. آه .. آى .. لقد انتزع السهم من قدمها مستعملاً أداة تشبه (البنسة) ، ثم وجدت أنها تجلس على العشب ، وترى العالم للمرة الأولى فى وضع صحيح ..

كان الدم ينساب من قدمها بغزارة ، لكن هؤلاء الفرسان لا يواجهون مشاكل من أى نوع .. لقد أعد ضمادة ملأها بأعشاب عجيبة استخرجها من سرج الجواد ، ثم ربط قدمها بعناية ..

قال لها :

ـ « إن عشب (القنزعور) سيوقف النزف فورًا ! »

كانت واثقة من شىء واحد : هذا العشب له أى اسم ممكن عدا (القنزعور) هذا .. هى مجرد هلوسة أخرى من هلاوس (فانتازيا) ..

ولكن من أنت أيها الفارس ؟ نوع الفارس الذى ينقذ الأميرة على حصان أبيض .. أى أنه باختصار مادة الحلم الخام لدى الأنثى .. الأحلام لدى الإناث تُصنع من الخيول البيض وفرسانها ..

كان وسيمًا .. والحقيقة أنه كان يحمل بعض ملامح (شريف) .. هـذا متوقـع على كل حـال ، ألـم تبـدأ المغـامرة و(شريف) هو المنقذ على الأرجح ؟

قال وهو يفك خوذته ، ويفك ألف شىء فى دروعه فينبعث منه رنين كأجراس دقيقة متصلة :

ـ « سوف يحرقون جثث القتلى وربما الأحياء كذلك فى كومـة كبيرة ، ثم يقضون الليل على ضوء هذه الشعلة العملاقة فى اللهو وشرب الخمر وانتهاك حرمة النساء .. من الخير لك أنك فررت ! »

قالت فى عصبية :

ـ « من هم ؟ »

لو قال إنهم التتار لشعرت بأن الأمر سخيف ، لأن المهاجمين لم يكونوا يحملون صفات التتار .. هل هذه القصة من وجهة نظر غربية تصف الحروب الصليبية من المعسكر الآخر ؟ علـى الأقل أنت تعرف ما سيكتبه عدوك عنك .. لا تقرأ قصة كتبها مؤلف إسرائيلى عن حرب 1973 ثم تتضايق لأنه يتهم المصريين بأنهم وحوش ..

لكن فى جميع الأحوال لم يكن هـؤلاء المهاجمون الذين فرت منهم يحملون صفات العرب ..

كررت السؤال :

ـ « من هم ؟ »

قال وهو يمسد على شعره لاهثًا :

ـ « إنهم الإنجليز طبعًا ! »

كادت تجن .. إذن من نحن ؟ وفى أية قصة قرأت أحداثًا كهذه ؟ (جان دارك) ؟ مع (جان دارك) لا تتحرك الأمور بهذه الكيفية دعك من أنه سيكون عليها أن تُحرق وسط الجموع .. هى لم تجرب هذا من قبل لكنها لا تحسبها تجربة رائعة ..

تنهدت فى ضيق ، وقالت :

ـ « بينى وبينك لقد بدأت أمل هذه المغامرة .. أنـا لا أفهم أى شىء على الإطلاق .. »

هنا حدث شىء غريب .

لقد أدار الفارس ظهره لها وجلس فى وضع الاحتباء .. لا ترى إلا كتفيه العملاقتين تهتزان .. تهتزان .. هنا فهمت ! إن فارسها المغوار يبكى !

زحفت على ركبتيها حتى بلغته وربتت على كتفه ، ففوجئت به يستدير ليمسك بكم ثوبها ، مـاذا تفعل يا مجنون ؟ لقد مزقت جزءًا منه .. ثم ..

ف ف ف ف !

أفرغ معظم إفرازات أنفه فى الخرقة ، وكومها وألقاها بعيدًا ..

ـ « معذرة ! لا أستطيع أن أتمخط من دون منديل ! »

وطبعًا الفرسان الشجعان لا يحملون هذه التفاهات كالمناديل .. إنهم يتمخطون فى أكمام الأميرات الحسناوات ..

ـ « لماذا تبكى ؟ هل آذيت مشاعرك ؟ »

ـ « نعم .. إن القصة لم ترق لك برغم كل ما وضعوه فيها من إثارة ! »

ثم غلبه البكاء من جديد فمزق قطعة أخرى من كمها الآخر !

ليته يتغلب على حزنه قبل أن يتحول ثوبها إلى كافولة طفل !

* * *

5ـ حيرة شبه بالغة ..

إنها تمشى فى أزقة (المغربلين) متأودة ..

لا تريد أن تتأود ، لكن هذا الشبشب اللعين يرغم خصرها على هذه الرقصة الثعبانية .. لا تريد أن تتأود لكن المـلاءة اللـف المحكمة ترغمها على ذلك .. لا تريد أن تتأود لكنه اللادن فى فمها يرغمها على ذلك ..

تمشى فى هذه الأزقة ، عارفة أنه ما من صنايعى ولا قهوجى ولا حلاق إلا وتوقف عن عمله ليرمقها فى إعجاب ويتنهد ..

إنها الحسناء .. إنها الحب والجمال ..

صف من الجنود الإنجليز السكارى يمشون مشية هى للرقص أقرب .. لم ترهم منذ .. منذ 1919 !

منذ اللحظة الأولى تعرف أنهم سيعترضون طريقها .. من الغريب أن تروق لهم .. لابد أنهم يرونها بدينة أكثر من اللازم .. لا تمت بصلة لفتياتهم الشقراوات الخاليات من الشحم ، لكن الخمر تذهب بالعقول ، وهم ثملون ..

فوجئت بهم يشكلون صفًا أمامها ، ويقلد أحدهم مشيتها بطريقة كوميدية ..

ـ « سوفتى بنت .. سوفتى بنت ! »

باعتبار هذه قمة البلاغة فى اللغة العربية .. الجندى من هؤلاء لا يعرف من العربية سوى كلمة (بنت) وكلمة (بقشيش) ..

تراجعت للخلف خطوة ، فاكتشفت أنهم صنعوا صفًا خلفها يمنعها من التراجع ..

إنه لمأزق إذن !

هنا حدث ما لم تتوقعه فى زمن كانت دماء الرجال فيه حارة .. لقد أشعل المشهد حماس الصنايعية وجنونهم .. وسرعان ما برز من المتجر عدد من هؤلاء الصبية يحملون المقاعد والمناضد الصغيرة ، وهووا بما يحملون على رءوس الجنود .. وظهر من مكان ما عملاق أسمر يلبس فانلة داخلية وعمامة ، وانطلق يغرس أنامله فى أعناق هؤلاء رافعًا كل اثنين فى الهواء لثوان قبل أن يلقى بهما أرضًا ..

إنها الحرب إذن ! وهى السبب !

النسوة فى الشرفات يلقين بماء الغسيل القذر ـ أو المغلى ـ فوق أى جندى يسقط تحت مجال قذائفهن ، مع الكثير من السباب :

ـ « أيها الكفرة الأنجاس ! ما لكم والنساء يا أولاد الـ .. ؟ »

حتى الأطفال راحوا يطلقون نبالهم الصغيرة على العيون الزرق ، ومن موضع ما دوت صفارة طويلة حادة .. وسرعان ما ظهر رجال الشرطة .. منهم المصرى والبريطانى ، وانطلقت العصى تضرب فى كل اتجاه ..

هرعت (عبير) تتوارى تبًا لهذا الكعب ! فى مدخل بناية .. وراحت تلهث مفكرة ..

لو لم يكن هذا عالم (نجيب محفوظ) وهذه رواية (زقاق المدق) فهى لا تفقه شيئًا .. إنها (حميدة) على الأرجح ..

لكن .. على الأقل هذه قصة معروفة ، وكانت تتوقع أن تجد نفسها فى عالم (نجيب محفوظ) يومًا ما .. لو لم تدخله لشعرت بأنها خدعت ، هى التى لم تجرب من تلك العوالم التى هى قلب محراب الأدب إلا عالم (دستويفسكى) .. لكن المرشد كان يقول لها إنها ستدخل عوالم هؤلاء الأدباء الكبار يوم تنضج بما يكفى .. أتراها نضجت حقًا ؟

تنهدت واستندت إلى الجدار فقط لتشعر كأن كلب (سان برنار) أو تنين (كومودو) يلعق أناملها ..

أجفلت ونظرت لمصدر هذا اللعاب ، فوجدت أنه رجل ضخم يلبس فانلة مخططة من التى يلبسها الفتوات واللصوص ، وعلى رأسه طاقية لا داعى لها ، وقد أحاط ساعديه بأساور الحديد .. إنه على ركبته يلثم يدها ..

تراجعت إلى الخلف ، فقال فى هيام بصوت كقربة ماء يتم إفراغها :

ـ « متى تتنازلين عن كل هذه الخيلاء يا (حميدة) ؟ إن الدلال كالملح .. قليله يصلح الطعام وكثيره يسقمنا .. »

قالت له وهى تتلفت حولها فى ذعر :

ـ « أنت تعرف أن معلمك لن يصفح عنا يا (شطا) !! »

(شطا) ؟! للمرة الأولى تدرك أن هذا (شطا) .. ما معنى هذا ؟ (شطا الحجرى) هو بطل قصة (نجيب محفوظ) المدعوة (الرجل الثانى) والتى قدمتها السينما باسم (الشيطان يعظ) .. إذن هى فى قلب عالم فتوات (نجيب محفوظ) .. كل هذا جميل لكن لماذا هى (حميدة) ؟ ولماذا تحتفظ القصة بهذه الصبغة الكثيفة من (زقاق المدق) ؟

فى هذه اللحظة توتر (شطا) ثم رأته يصلح القلنسوة على رأسه ، ويهمس لها :

ـ « ابقى هنا .. »

وسرعان ما غادر مدخل البناية ..

نظرت (عبير) من موضعها إلى الشارع ؛ لترى أن هناك ظاهرة غريبة تولد ..

صف من الرجال ضخام الأجساد يحملون النبابيت يتقدم ليقف فى تحد .. ومن جهة أخرى يأتى صف آخر من رجال ليسوا أفضل حالاً يقفون ، وهم يضعون النبابيت على الأكتاف بتلك الطريقة المميزة للسقائين ..

إنها مواجهة إذن .. ربما لا ينقص الأمر إلا موسيقا (إنيو موريكونى) الشجية ..

بالفعل تفر النسوة ويغلقن النوافذ ، والمقاهى غادرها من له فى الفتونة لينضم إلى جيشه ، بينما أغلق القهوجية المقهى على الباقين ..

الأطفال توارى كل منهم فى ركن وراح يتابع ما سيحدث بعينين واسعتين .. هذه أهم ذكريات ستحفر فى وجدانه ولسوف يحملها معه أبدًا كرمز للقوة والرجولة .. بعد عشرين عامًا سيكون عدد منهم بين هؤلاء من حاملى النبابيت ..

ومن بين صفوف الرجال يخرج أغلظهم وأضخمهم وهو يحمل النبوت على كتفيه بطريقة السقاء تلك ، ويشمخ بصدره أمام الجموع من المعسكر الآخر :

ـ « هلم يا (دينارى) ! أرنى نفسك ! »

ثم وضع بعض التوابل التى تشعل الجنون فى عروق منافسه :

ـ « أم إنك خائف كالفأر ؟ »

من بين الصفوف المواجهة خرج رجل قريب منه فى الحجم والسمات ، وقال بصوت ارتجَّ له الحى :

- « (الدينارى) لا يخاف ولكن يشمنز ! »

هذا هو المشهد التقليدى فى كل الثقافات .. فى كل أفلام (سيرجيو ليونى) الإيطالى .. فى أفلام الساموراى .. القوة المجردة العاتية تواجه قوة مجردة عاتية .. عندما كان الرجال رجالاً حقًا ، لم يكن هناك وزن لألعاب اللسان والدبلوماسية والخداع .. دعك من نبل منظر قائدى الجيش يتواجهان أمام الجند ، وهو المشهد الذى تعجُّ به قصص حصار (عمورية) و(الإلياذة) .. إلخ ...

لقد افتتن (نجيب محفوظ) بعالم الفتوات ، ومنه وثب إلى سموات أخرى من الرموز والتضمين والتلميح .. إن الفتونة عند محفوظ هى بالتأكيد أكبر من مجرد رجل ضخم يحمل نبوتًا .. هذا الموضوع يحتاج إلى ..

آى .. لا وقت للكلام لأن الرجلين يصطرعان .. النبوت يهوى كأنه الجبل فوق رأس أحدهما فيتقيه بنبوته الخاص ، وعيناه لا تفارقان عينى خصمه فى خبرة وفهم لما يجرى ..

لحظات ملحمية .. أكبر من الواقع .. أكبر من الحقيقة ..

الرجلان يتبادلان الفخر والجعجعة ، ولا يكف كل منهما عن ترديد قصائد المدح فى نفسه ..

إنهما يدوران حول بعضهما .. إنهما يقتربان .. يبتعدان ..

فجأة شعرت بأن يدًا توضع على أنفها ..

اليد تحمل منديلاً ملوثًا بسائل له رائحة كيماوية نفاذة ..

رائحة أسيتون كالذى تنزع به الطلاء عن أظفارها .

لم تكن تعرف شيئًا عن علم الكيمياء لكنها أدركت أن هناك ذرة كربون وثلاث ذرات كلور وربما ذرة هيدروجين .. $CHCl_3$ ..

إنه الكلوروفورم !

لهذا تزداد الدنيا سوادًا .. ولهذا تتهاوى ساقاها .. ولهذا يصير التفكير كأنه حلوى ذائبة .. لزجة .. متداخلة .. يصعب أن تتحرر منها أو تخرج بشىء ..

يمكن أن ندرك أن هناك من تسلل وراءها وخدرها بالكلوروفورم بينما هى تراقب المشهد ..

لكن من هو ؟

ولماذا ؟

* * *

وكانت فى الفـ ...

وكانت فى الفـراش مقيدة ..

وكانت فى الفـراش مقيدة فى وضع النسر الفـ ...

وكانت فى الفـراش مقيدة فى وضع النسر الفارد جناحـيه ..

هكذا بدأت تستعيد وعيها ببطء ، والصورة المبتورة بدأت تكتمل ..

ونظرت حولها ..

إنها فى مصر كما هو واضح .. وغالبًا هى فى فندق فاخر مما يؤمه الغربيون .. فندق فيه طابع أوائل القرن العشرين حيث كل شىء باذخ فاخر مصنوع بدقة وعناية ، والإضاءة تعتمد على مصابيح الكيروسين .. باختصار هو ذات الزمن الذى رأت فيه صراع الفتوات ..

وكان يقف هناك جوار النافذة الموصدة ..

ذلك الرجل أشقر الشعر ، الذى يقف بالقميص الأبيض وحمالتى السروال ، وهو يعقد ربطة عنقه الرفيعة التى تنتمى لذلك العصر ..

يمشط شاربه ثم يلتفت للخلف .. يراها فيشرق وجهه ..

يقول لها بإنجليزية جيدة تفهمها على الفور :

ـ « معذرة على الطريقة التى استعملتها .. إن هذه المادة تدعى (كلوروفورم) وهى اختراع بريطانى .. اختطفتك لأن بلادكم المزدحمة الخالية من الضباب لا تسمح بذات الطقوس التى اعتدناها فى بلادى .. »

أرادت أن تتكلم ثم أدركت أنها مكممة .. مف مف مفف !

كان يعبث فى صندوق صغير يحمله .. يضعه على النضد ، ويتفحص محتوياته كأنه ممرضة تعد أدوات جراحية قبل قدوم الجراح :

ـ « لم تعد الظروف فى (لندن) تتيح لى حياة سهلة .. لذا قررت أن آتى إلى بلدكم الدافئ .. لا بأس أن أجرب مواهبى مع حسناء سمراء مثلك .. »

مواهبه ؟ ماذا يعنى ؟

« كأنه ممرضة تعد أدوات جراحية .. »

خطر لها هذا التعبير ولم تنتبه له .. لكنها الآن تجد أنه أدق وصف ممكن ..

إن ما يمسك به هو أدوات جراحية تذكرها بتلك المخصصة لتشريح الضفادع ، والتى كانت تباع فى المكتبة عند أول شارعهم ..

قال وقد أدرك أنها فهمت :

ـ « فى إنجلترا لا أحد يعرف اسمى .. يطلقون على اسم (جاك السفاح jack the ripper) .. وهم الآن ينقبون وسط الشوارع التى يخنقها الضباب عنى .. لا يخطر ببال أحدهم أنى هنا فى مصر .. وأننى أمارس هوايتى فى قتل النساء وتمزيق جثثهن بنجاح تام .. الفارق الوحيد هو أن أحدًا لن يبالى بفقد فتاة مصرية بينما تهتز (سكوتلانديارد) لفقد فتاة شارع بريطانية ! »

(جاك السفاح) ؟ وسط قصة من فتوات (نجيب محفوظ) ؟ ما هذا بالضبط ؟ ربما لم يكن لـ (محفوظ) دور من البداية ؟ ربما هى رواية غربية عالمية عن سفاح نساء .. فى قصة (العطر) لـ (زوسكيند) كان البطل يقتل الفتيات النضرات كى يصنع من روائحهن عطرًا لم يعرفه البشر من قبل .. لا .. ليست هذه قصة العطر .. الرجل قال بوضوح إنه (جاك السفاح) .. هل هناك رواية بطلها (جاك السفاح) ؟

لوح الرجل بالمبضع فى الهواء . لامعًا مخيفًا يتقدم نحوها ..

وماتت الصرخة على شفتيها ..

* * *

6ـ هـو ..

إنها تجلس فى غرفة مكتب ضيقة ..

فوضى عامة من الأوراق وأعقاب لفائف التبغ وشرائط الكاسيت المبعثرة .. ثمة جهاز كمبيوتر مفتوح وعلى شاشته يصر شلال على أن يتدفق للأبد .. هناك كوبان من الشاى فارغان ، وهناك كومة من مناديل ورقية غير مستعملة .. كأن هذه الغرفة مخصصة لاستعمال خرتيت ..

جدران الغرفة فى أسوأ حال .. لونها خليط من الغبار وتلك اللعنة الصفراء التى تصيب الدهان الأبيض ..

الكتب ذاتها متنوعة .. منها كتب عن النقد الأدبى ، وكتب عن الشخصيات العالمية ، وهناك موسوعة أو اثنتان .. لكن الحقيقة التى لا تفارق من هم مثله هى أنهم لا يكملون أى كتاب فى حياتهم .. فقط يفتحون الكتاب ويحضرون القلم الرصاص ، ويجلسون ويبدءون القراءة فى حماس واضعين عشرات الخطوط والتعليقات ، ثم ينتهى الحماس وينسون كل شىء بعد ثلاث صفحات .. يعود الكتاب بشكل ما إلى رف المكتبة ، وينسون أنهم لم يكملوه .. ربما يحملون ذكرى شبحية عن قراءته ..

أمـام شاشـة الكمبيوتـر يجلـس ذلـك الشـاب العصبـى الغـاضب منكوش الشعر .. من آن لآخر يحك شعره فى شراسة كأن هذه طريقة معترف بها لاستجلاب الأفكار ..

يمد يده لعلبة التبغ التى هشمها بقبضته من قبل .. ينزع لفافة ويشعلها .. لم يقلع عن التدخين كما لم يفعل أى شىء آخر وعد نفسه به ..

يفكر .. يتحمس .. يعلو صدره ويهبط .. يدق على المفاتيح قليلاً ..

إنه قد صار ممن يستعملون الكمبيوتر للكتابة .. إنها برغم كل شىء طريقة رخيصة نظيفة لا تكلف ثمن الحبر وقذارته .. لا تكلف ثمن شريط الآلة الكاتبة .. لا أحد يتداول أوراقًا مطبوعة .. هذه الأوراق سوف تنتقل إلى القرص الصلب لدى أحدهم .. كل شىء رقمى لا يستهلك أوراقًا إلا فى المرحلة النهائية بحق ..

برغم هذا هناك أوراق متناثرة .. يبدو أن الرجل يستعمل الطريقتين معًا ..

ينظر لها فى حيرة ثم يقول :

ـ « لم لا تندمجين فى القصة ؟ إنها جيدة .. »

فكرت قليلا ، ثم قالت محاولة ألا تجرح مشاعره :

ـ « جيدة لكنها خالية من الأصالة .. لو أنك وضعت قصص (زقاق المدق) و(إيفانهو) وفرسان المائدة المستديرة و(روبن هود) وكتابات (برايان لوملى) و(سيد الخواتم) .. لو أنك وضعت هذا كله فى خلاط وتركته يعمل عشر دقائق ، لخرجت لك قصة مماثلة .. »

ـ « لم تتضح الأحداث بعد .. »

ـ « هذا ما لاحظته .. لكنى فقدت اهتمامى لأن الموضوع تحول إلى (خنطبيطة) .. فتاة يتحرش بها البريطانيون فتقوم عركة فى الحارة ، وتلجأ إلى مدخل بناية لترى مواجهة بين الفتوات ، وهنا يختطفها (جاك السفاح) .. و .. لو كانت هذه طريقة للمزاح فأنا لم أتذوقها ، ولو كانت قصة فعلاً فأنا لم أعش أحداثها .. »

راح يداعب أزرار الجهاز فى ضيق ثم قال :

ـ « لا أعرف ما أقول .. لكنى أعتقد أن مزاج القارئ يحدد تاريخ الأدب فى مصر .. لو فرضنا أنك مصابة بإمساك أو أنك فى حال نفسية سيئة فلربما .. »

قالت فى ضيق مماثل :

ـ « نظرية طيبة ، لكن معناها الحتمى هو أن كل الأعمال الفنية تحف رائعة متقنة .. فقط القارئ أحمق مضلل .. »

التمعت عيناه وقال فى حماس :

- « ألا ترين أن هذه هى الحقيقة ؟ »

- « بالطبع نعم .. لا أرى هذا .. على الأقل أنا لم أحب مغامرة القرون الوسطى تلك ، ولست مصابة بالإمساك .. »

نظر لها للحظة متابعًا هـذا المنطق .. يبدو أنـه وجده سليمًا بالفعـل ؛ لأنـه مد يده ومسح ملفًــا .. رأت (عبـير) الصـورة المميزة للأوراق تطير فى الهواء لتسقط فى سلة المهملات ..

ثم بدأ يكتب من جديد ..

* * *

عندما عرفت (عبير) (عماد التونى) أول مرة لم يكن يستعمل الكمبيوتر ..

عرفته جيدًا جدًا وكأعمق ما يكون ، وبرغم هذا لم تقابله مرة واحدة .. هذا هو ديدن الكاتب الذى تشعر بأنه يجلس معك جلسة خاصة هامسة ليفضى لك بأدق أسراره .. إنه معك فى مكتبك . فى الفراش .. فى كل مكان .. إنه ملكك ويفهمك .. حتى تتصور أنك لو قابلته فى شارع مزدحم لعرفك أنت بالذات .. تلك الفكرة الرومانسية التى عذبت فتيات كثيرات من المعجبات بالأديب الوسيم (إحسان عبد القدوس) ..

لكن (عبير) لم تر (عماد التونى) من قبل ، ولم تختصه بأية خواطر رومانسية ..

القصة بدأت عندما ذهبت لعم (زكى) بائع المجلات القديمة لتبتاع زادًا من الأحلام كالعادة .. لولا عم (زكى) وأمثاله لما استطاعت أن تقرأ كتابًا واحدًا .. بل لما عاشت يومًا جديدًا ..

عم (زكى) كذلك يعرفها ويحتفظ لها بالجديد ، ولا يدقق معها فى السعر لأنها :

- « متعوضة !! متعوضة المرة القادمة .. »

مع الوقت يصير هؤلاء القوم جزءًا من الكتب ذاتها .. لابد أنه فى زمن ما جلس مع (ماكسيم جوركى) و(ويلز) و(جوناثان سويفت) و(يحيى حقـ ...

لا .. لم يكن هذا الأخير وهمًا .. كل أدباء مصر فى القرن العشرين مروا على عم (زكى) فى وقت ما ، وهو قادر على أن يحكى لك الكثير عن (يحيى بك حقى) قصير القامة المهذب الوديع ذى الدعابة القوية و ...

هذه المرة كانت هناك رزمة من المجلات الفنية ، وقد ابتاعتها (عبير) بسعر مغر ..

فى البيت فرغت من إعداد طعام الغداء مع أمها ، ثم جلست على الأريكة جوار (شذى) تتصفح تلك المجلات بطابعها العتيق المحبب .. زواج (أنور وجدى) و(ليلى مراد) .. الأغنية الأخيرة للآنسة (أم كلثوم) يحضرها الشاعر الشاب (أحمد رامى) ..

فجأة وجدت مجموعة من أوراق الفلوسكاب غير المسطرة مدسوسة بين صفحات المجلات .. أوراق دشت رخيصة الثمن من التى يحب الصحفيون الكتابة عليها ، وتتشرب الحبر كأنها ورق نشاف .. وعلى الأوراق بخط جميل أنيق ، وبحبر جاف أسود قل أن تراه هذه الايام ، قرأت كلمات :

غادة القلعة

رواية تاريخية اجتماعية

بقلم (عماد التونى)

فتحت الصفحة الأولى التى تحمل رقم (1) فى الهامش العلوى .. وبدأت تقرأ : « دنت جيوش الأعداء عبر خط الأفق .. وعرف المحاصرون فى القلعة أن اليوم هو الأخير .. لقد حانت الساعة .. »

إذن صاحب المجلة السابق أديب أو يحسب نفسه كذلك .. ولكن ما سبب عدم اليقين ؟ يقولون : هو ذا الجمل وهو ذا الجمّال .. فلنقرأ ولنر ..

* * *

7ـ أديب ولكن ..

لم يكن سيئًا .. بالتأكيد لم يكن سيئًا ..

لكن وهذه هى المشكلة لم يكن جيدًا ..

إنه يكتب مثل أى شخص آخر ، والقصة تدور كما يجب لها أن تدور .. لغة متماسكة .. ما من أخطاء لغوية .. من الواضح أنه كان ينال أعلى درجة فى امتحانات التعبير فى المدرسة .. هذه اللغة الجزلة عديمة اللون والرائحة والطعم التى تروق للكبار .. لغة (السيارة تطوى الأرض طيًا) و(الأسد الهصور) ، لكنها تفتقر إلى هذا الوهج المجنون المدعو (إبداع) .. الشىء الذى يجعلها تختلف .. الشىء الذى يجعلك لا تنسى القصة وتشعر بأنك عاجز عن كتابتها ..

باختصار كان يكتب بطريقة (تخرج عادل فى كلية الطب فصار طبيبًا نابهًا يُشار له بالبنان) أو (وثقا عهد حبهما بقبلة طويلة) ..

لقد كتب ست صفحات انتهت بهذه العبارة :

« وبدأ يفك دروعه الثقيلة وهو يلهث .. بينما راحت تنظر له فى إعجاب وصدرها يعلو ويهبط .. ثم نظر لها وقال : »

فجأة تنتهى القصة هنا ..

لن يعرف القارئ أبدًا ما قاله ذلك الفارس بعد ما فك الدروع ..

والمشكلة هى أنك فعلاً لا تهتم بمعرفة ما قيل .. لو حسب المؤلف أنك ستبكى وترتمى على الأرض لتضربهـا بقبضتيك متوسلاً ، فهو مخطئ ..

* * *

وجدت ورقة بيضاء بعد هذا ..

ثم ورقة أخرى على غلافها عنوان :

السفاح فى مصر

رواية بوليسية تاريخية

بقلم (عماد التونى)

فتحت الصفحة الأولى وبدأت تقرأ :

ـ « كانت (حميدة) تهرع عبر شوارع القاهرة القديمة قاصدة دار خالتها .. »

وهكذا تمضى القصة بين تحرش جنود بريطانيين وقتال وصراع فتوات ، ثم تخدير و(جاك السفاح) الذى فر من بريطانيا ليجرب حظه مع بنت مصرية .. وتنتهى الصفحات بعبارة :

« وسقطت الخرقة المبتلة على أنفها فلم تعد تشعر بشىء .. »

ثم كتب بالقلم الرصاص وبخط متعجل :

ـ « هذا هو ذات عصر (ريا وسكينة) .. ربما كان ممكنًا أن نقحمهما فى الأحداث ، بحيث يعمل معهما (جاك السفاح) .. »

كان هذا سخيفًا إلى حد لا يصدق .. لحسن الحظ أنه لم يفعل ..

بعد هذا وجدت مجموعة أخرى من الأوراق فى مجلات أخـرى .. كل الأوراق تحمل ذات الخط وذات الكتابة بالحبر الأسود .. هناك قصائد شعر .. هناك سيناريو مسلسل تلفزيونى يتحدث عن أسرة مصرية عاديـة ، تطرف ابنهـا فترك الجامعة وانضـم لجماعـة متطرفة ، حيث الكل يلبس الجلباب ويحمل الجنزير ، ولا عمل لهؤلاء سوى تفجير حافلات السياح ..

طبعًا لم يكتمل أى عمل ..

فى كل مرة يكتب بضع صفحات ثم يتوقف ..

هناك صفحة يحدد فيها لنفسه جدولاً زمنيًا ليصير رائعًا :

1 ـ الإقلاع عن التدخين خلال شهر .

2 ـ المواظبة على الصلاة خلال أسبوع .

3 ـ الركض صباحًا ولعب الرياضة ..

4 ـ الوصول لمستوى ممتاز جسديًا وعقليًا ودينيًا .

5 ـ كتابة 40 قصيدة ومسلسل تلفزيونى مع أربعة أفلام وستين قصة قصيرة خلال شهرين .

6 ـ تعلم الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية خلال هذا العام .

7 ـ الزواج من (غيداء) .

كل هذا جميل ، والطموح ليس بالشىء المقيت ، لكن لابد أن تكون خطط المرء متسقة مع الواقع .. « كتابة 40 قصيدة ومسلسل تلفزيونى مع أربعة أفلام وستين قصة قصيرة خلال شهرين .» .. هل هو خط تجميع فى مصنع للبطاطس المقلية ؟ الأمر لا يتعلق بالليمون بل يتعلق بعملية إبداعية معقدة . ديوان (كامل الشناوى) بقصائده القليلة جدًا استغرق الشاعر عمره بالكامل .. (إميلى برونتى) لم تكتب سوى رواية واحدة ذات بال هى (مرتفعات وذرنج) .. (سرفانتس) لم يكتب رواية مهمة فى حياته كلها سوى (دون كيشوت) ..

وما هى صفات العقل الذرى الذى يتعلم الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية خلال عام ؟

كيف يعاهد المرء نفسه على (الوصول لمستوى ممتاز جسديًا وعقليًا ودينيًا) ؟ يمكن أن يتعهد بأن يحاول .. لكن هذا الفتى لولا بقية من تعقل يوشك أن يعاهد نفسه على أن يدخل الجنة ، ويضع جدولاً زمنيًا لهذا ..

كانت هناك ورقة أخرى كتبت بذات الصيغة عدة مرات :

حبيبتى غيداء :

كلمات كثيرة يجب أن تقال منذ رحيلك عن مصر .. تلك الزيارة التى كانت حلمًا حقيقيًا لا يفارق ذكرياتى .. أعرف أنك أحببت الهرم والنيل وتوقعت أن تحبينى أكثر لكنك لم تقولى هذا ولا أعرف إن كنت فعلت أم لا .. لكننا تواعدنا على أن أنهى أعمالى هنا وألحق بك فى (حلب) ..

بالفعل رتبت أمورى لأنى أعرف أنى لن أعود ثانية ، وهناك قائمة كبيرة من الأعمال التى على أن أقوم بها ، وأنا أعرف جيدًا أننى قادر على النجاح .. هناك ألف مشروع فى ذهنى ، وأعرف أننى موهوب فعلا وأننى فقط بحاجة إلى فرصة واحدة ..

أعرف أن هناك أشياء عديدة لم ترق لك ولم ترق لأخيك .. حياتى ليست هى الحياة التى تناسب أخًا يتمنى أن يجد حياة هادئة لأخته ، وأعرف أنه لم يحب الفوضى فى غرفتى ولا تدخينى المفرط ، ولا بعدى التام عن الرياضة .. أعرف هذا جيدا ..

لقد زارنى فى المكتبة التى أبيع فيها الكتب الدينية ، ولم يبد راضيًا لأنها مهنة غير منتظمة .. فى أى يوم يمكن أن يطردنى صاحب العمل .. أعرف هذا .. لكن الشيخ (محيى) رجل طيب ويعرف أننى أعتمد بالكامل على المبلغ البسيط الذى أحصل عليه من المكتبة .. أعرف أننى سأمارس عملا مشابهًا فى سوريا ،

لكنـى أعرف كذلـك أن بوسـعى أن أنجـح وأن نشـق طريقنـا عـن طريق كتابة المسلسلات والأفلام .. إن سوريا نشيطة فى الإنتـاج الدرامى وهم بحاجة إلى مؤلفين دراميين مثلى ..

صدقينى يا (غيداء) الحبيبة أنا أعرف ما أقول .. سأنجح ، ولسوف أكون معك للأبد هناك فى سوريا الجميلة ، فإن لـم يكن سأكون معك فى السماء حيث لن يفرقنا أحد ..

أرجوك أن تردى علىّ ولا تتركينى هكذا ..

عمـاد

هذه هى المشكلة .. أسلوب خال من الأخطاء لكنـه خـال من الجودة .. وبرغـم هذا هو يفرط فـى المسودات لأنـه كتـب ذات الخطاب عدة مرات ..

ترى هل تزوج حسناءه السورية ؟ كان هذا ضمن خططه بعد ما يصير رائعاً ، فهل فعل ؟ شىء فى قلـب (عبير) قـال لهـا إن هذا لم يحدث ..

* * *

8ـ أديب ومع ذلـك ..

كمـا لنـا أن نتصـور قضـت (عبير) عدة أيام فى عالم هـذا الـ (عماد) ..

قرأت كل حرف كتبه ، وفكرت مثلـه تقريبًا .. إنهـا أنثـى ، وفضول الأنثى العارم شىء معروف .. لهذا تهوى الأنثى تمثيلية الساعة السابعة ليس عـن ولـع بالدرامـا ، بـل لأن هذه التمثيلية نوع من التلصص المحكم على بيوت وأحوال الآخرين ..

بعد فترة بدأت تشعر بأنها تراه .. ترى شعره المنكوش العصبى الذى يستعصى على التمشيط ، وترى أسنانه التى أتلفهـا التبـغ ، وترى نظارته السميكة ..

تعرف أنه يجلس فى حجرته بالفاتلة الداخلية ، وأن لديه قطًا مشمشيًا له عين تالفة ، وأنه يشرب الكثير من الشاى الثقيل ..

تعرفه لدرجة أنها الآن تجلس أمامه ، وهو عاكف على الكتابة ..

لابد أن عشر دقائق قد مرت ، وهـو غـارق فى التدوين علـى شاشة معالج الكلمات .. فى النهاية رفع عينه نحوها ، ولـم يقل شيئًا ..

قالت له فى كياسة :

ـ « فى بيتنا كنت مولعة بالطعام الجيد .. لكنى كنت طباخة رديئة .. جربت حظى عدة مرات ، وأوشك البيت كله على الإصابة بالتسمم .. هكذا كففت عن المحاولة ، وصرت أكتفى بـأن أعاون أمى فى مهام بعينها .. تقطيع الطمــاطم . تنقية الأرز .. إلخ ... لقد قنعت بهذا .. »

نظر لها واتسعت عيناه ، وقال :

ـ « هذا حديث شائق ، لكنى للأسف آخر من يهتم بتاريخك فى التدبير المنزلى .. »

ـ « دعنى أكمل .. تعلمت أننى أتذوق الطعام الجيد لكن لا ينبغى أن نتحول جميعًا إلى طباخين .. إن لله عبادًا اختصهم بهذه الموهبة ، وذات الشىء ينطبق على الأدب .. أنت لم تؤت الموهبة فلماذا لا تكتفى بالاستمتاع به ؟ »

ضرب المنضدة بقبضته ، وفى غلٍّ هتف :

ـ « لا أريد أن أكون مجرد واحد آخر .. آتى العالم لأضيف له ثلاثة أطفال يحملون نصف جيناتى .. شعرى المجعد وداء السكرى الذى عانت منه أمى .. ثم أرحل . »

ـ « لن يكون شعر الأطفــال مجعدًا ما دام نصف جينـاتهم سوريًا ! »

نظر لها فى غيظ .. لا يعرف إن كـان يخبرها أن قصة الحب قد فشلت أم لا .. لا لن يخبرها .. إنها تتدخل فى حياته منذ رآها ، وهناك أشياء لا نعترف بها حتى لأنفسنا .. قصة الحب قد فشلت لكنه لم يصارح نفسه بهذا قط ..

والأدهى أنها فشلت لأن (غيداء) اعتبرته فاشلاً عاجزًا عن النجاح .. نحن نعترف بأشياء كثيرة ، لكننا لا نعترف بالفشل أبدًا .. نعترف بأننا ضعفاء أو متخاذلون .. نعترف بـأن حظنا سيئ .. لكن لا أحد يعترف بأنه نكرة ..

قال لها وهو ينظر إلى الشاشة فى حماس :

ـ « دعينا نجرب هذا .. »

* * *

عندما دخلوا حاملين المحفَّة ، سمعت صوتهم فى الممر فغادرت الغرفة ..

هناك كان الضابط واقفًا مع اثنين من المسعفين ، ورآها فتنحى جانبًا بينما هى تصلح من خصلات شعرها الأشقر ، وتشعل لفافة تبغ كعادتها كى تقاوم الرائحة ..

قال لها وهو يتأمل وجهها القسيم :

ـ « حالة أخرى يا دكتورة .. أنت تعرفين الرجل .. »

اتجهت إلى الملاءة وأزاحتها .. وكان ما توقعته ..

فتاة سمراء الشعر حسنة القسمات تشخص إلى السقف بعينين لن تريا بعد اليوم .. علامات التعذيب واضحة لكن سبب الوفاة هو تلك الطلقة التى اخترقت الجبهة .. من الواضح أن يدى الفتاة مقيدتان خلف ظهرها ..

(عماد) مولع بالسفاحين على ما يبدو .. هناك (جاك السفاح) والآن هذه القصة التى لم تتبينها بعد .. إن لديه ميولا سادية لا شك فى هذا .. المعادلة الشهيرة .. الحرمان والفشل المتكرر يؤديان إلى الغل ، والغل يؤدى إلى السادية .. والسادية تعبر عن نفسها فى هذا الطراز من القصص ، حيث تلقى النساء عقابهن على الورق .. لن يصير (عماد) سفاحًا حقيقيًا لذا يكتب عن سفاح آخر ..

قال لها الضابط ، وقد لاحظ شرودها :

ـ « ثالث حالة نجدها فى مرآب فى (مانهاتن) خلال أسبوع .. أعتقد أنك بحاجة إلى ليلة لتكملى التقرير .. »

قالت وهى تلوك لفافة التبغ :

ـ « بالطبع .. »

كانت تشعر الآن بأنها بالفعل محترفة مارست هذا العمل مرارًا .. إنها الطبيبة الشرعية (باتريشيا) التى كان من حظها أن شرحت أغلب هذه الجثث .. ألم يحن الوقت لتسميته (سفاح مانهاتن) بعد ؟

العلامات واحدة .. التعذيب المفرط ثم القتل برصاصة فى الجبهة .. هذا القاتل منظم جدًا ..

قال الضابط ، وهو يتفحص أوراقه :

ـ « اسمها (ماريانا كارلوتى) .. سكرتيرة .. فى العشرين من العمر .. ذات السن كما هو واضح .. »

ـ « ومن أصل إيطالى كذلك .. لابد أن هذا يدق جرسًا .. »

وحدها الآن فى المشرحة الخالية فى هذه الساعة من الليل .. تعد لنفسها كوبًا ورقيًا من القهوة ثم تدخل إلى غرفة التشريح وتحكم تسليط المصباح على الجثة .. تشغل جهاز الكاسيت وبلكنة أمريكية عملية تبدأ فى إملاء التقرير .. هذه الطريقة العملية الباردة فى النساء تروق للرجل الأمريكى جدًا ، ولا سيما إذا كانت الفتاة قادرة على ذكر لفظة بذيئة من حين لآخر .. عندها يضع الأمريكى يده فى خصره وباليد الأخرى يصلح وضع الكاسكيت على رأسه ، ويصف هذه الفتاة بأنها (ساخنة Hot) .. لا توجد فتيات جميلات أو قبيحات فى أمريكا .. فقط هناك فتيات ساخنات أو لا ..

(ماريانا) أيضًا كانت ساخنة بالمقاييس الأمريكية .. هناك الكثير من الوشم وهى علامة جمال لا شك فيها عندهم ..

ولكن ..

بدأت تتوتر وهى تلاحظ للمرة الأولى شيئًا لم تلحظـه من قبل فى الجثث السابقة ..

هـذان الثقبـان فى العنـق جـوار الوريد الودجى بالضبط .. ما معنى هذا ؟

لو كان هذا فيلم مصاصى دمـاء لارتجفت هلعًا ، لكن الأمر ليس كذلك .. إنها الآن تميز هذا الجو وتفهمه .. إنها فى إحدى قصص (أدب المشرحة) الذى تكتبه (باتريشيا كورنويل) .. لا جدال فى هذا .. حتى اسمها (باتريشيا) كذلك !

الأخ (عماد) قرأ إحدى هذه القصص وتأثر بها جدًا كما هو واضح .. وما معنى أن يكتب كاتب مصرى قصة أبطالها غربيون يواجهون مشكلة غربية فى عالم غربي؟ هذا نوع فريد من الأدب المترجم يمتاز بأنه غير مترجم ! طريف فعلاً .. (ابن المقفع) فعل شيئًا شبيهًا بهذا فى (كليلة ودمنـة) عندما ألـف حكايات عبقرية عن الحيوانات ، وزعم أنها مترجمة عن الأدب الهندى فقط ليظفر باهتمام القراء .. ومن الغريب أن الجميـع صدق هذا الزعم حتى اليوم ..

لكن ما دخل الثقبين فى الأمر ؟

اتجهت إلى مكتبها فى نهاية الممر ـ يا لرائحة الكيماويات هذه ! ـ وطلبت (هانك) ..

(هانك) المخبـر السرى صديقهـا .. لا غنى عنه فى هذه القصص .. هو وحده يعرف ما يحدث ويعرف كيف يأتيها بالخبر اليقين ..

ـ « (هانك) .. أريد أن تعرف كل شىء ممكن عن فتاة من أصل إيطالى من (مانهاتن) اسمها (ماريانا كارلوتى) .. سكرتيرة .. فى العشرين من العمر وقد اختفت .. »

ثم بدأت تتلو عليه بيانات الهوية وهى تضعها فى ضوء المصباح ..

شعرت بأن هناك من يقف وراءها ..

التفتت فوجدت الفتاة القتيلة تقف خلفها ..

* * *

9ـ هجمـة أخـرى ..

لم يكن هناك وقت للتفكير .. لا وقت للذعر وكل الهستيريا الأنثوية .. إن القبور تغص بالفتيات اللاتى وقفن يصرخن بدلا من الفرار .

لكن كيف الفرار وهذا الـ .. هذا الشىء يسد الباب .. ؟

زجاجة الحمض على المنضدة .. كل هذه الكيماويات هنا ..

أمسكت بالزجاجة وانتزعت الغطاء فى ذات اللحظة التى أفرغت فيها محتوياتها فى وجه المسخ .. ترى هل يجدى الحمض مع فتاة كانت ميتة منذ ثوان ؟

يتصاعد الدخان قوى الرائحة ويغطى الشىء عينيه ويصرخ ..

يسقط أرضًا على ركبتيه فتثب (عبير) من فوقه وهى تصرخ بدورها ..

تركض فى الممر بينما يدوى صوت (هانك) من جهاز الهاتف الخلوى :

ـ « (باتى) .. ماذا يجرى هنا ؟ »

قالت وهى لا تكف عن الركض :

ـ « الفتاة ليست ميتة ! الإيطالية ! لا أعرف كيف .. لكنها الحقيقة .. (هانك) .. لابد من أن تأتى حالاً ! »

الثلاجة هناك فى نهاية الممر ..

تقتحمها وتغلق الباب خلفها ثم تتوقف لاهثة ..

هناك من .. هناك من يتحسس الباب من الخارج .. المقبض يهتز .. هذا حقيقى .. لكن الثلاجة موصدة بعناية ..

إذن الأمر لا يتعلق بقاتل تسلسلى .. الأمر يتعلق بمصاص دماء فى (مانهاتن) يجعل ضحاياه مثله .. تبًا لك يا (عماد) ! هل هذا أفضل ما توصلت إليه الآن ؟

وقفت خلف الباب تلهث وتتساءل عما إذا كانت المسوخ تتوقف كثيرًا أمام الأبواب ..

* * *

ثم سمعت صوته ..

(هانك) القوى الخشن الذى يعرف ما ينبغى عمله .. (هانك) المسلح .. (هانك) الذى يحبها .. إنه هنا !

تسمع صوته يناديها فى الممر ..

ـ « باتى !! »

إنه يقترب .. هل تفتح الباب الآن ؟ لكنها توقفت إذ سمعت صرخة .. صرخة رجل مذعور كما يكون الذعر ..

ـ « يا إلهى الرحيم!! ما أنت ؟! »

ثم صرخة مريعة أخرى .. بعدها دوت عدة طلقات .. ثم ..

كليك ! كليك !

مسدس فارغ ..

فاق الأمر تحملها ففتحت الباب .. هناك وجدت ذلك المسخ على الأرض فى منتصف الردهة بالضبط ، وقد تصاعدت منه سحابة دخان هى خليط من أثر الحمض مع بارود الطلقات ..

كان (هانك) يقف جوار الجدار يرتجف شاحب الوجه ، والمسدس فى يده وهو مصر على إطلاق طلقاته الفارغة على هذا الشىء ..

كليك ! كليك !

ـ « كفى يا (هانك) ! لقد قتلتها ! »

ـ « هى ميتة من قبل أن أطلق عليها طلقة واحدة ! »

وأشار إلى جبهته :

ـ « لا أحد يظل حيًا بهذا الثقب من مسدس (ماجنوم) فى رأسه .. »

إذن نحن غادرنا عالم (باتريشيا كورنويل) بالتأكيد .. فأين نحن ؟ لا ليس عالم (آن رايس) حيث هناك مصاص دماء رقيق معذب دائمًا .. مصاص يعانى مشكلة الخلود ويشعر بملل فظيع ..

اقتادت (هانك) الذى لم تعد ساقاه تحملانه إلى الداخل ، وقدمت له بعض مشروب (الجنجر) ليهدئ أعصابه ..

ثم جاء السؤال المهم ..

ماذا يحدث هنا ؟

* * *

قال لها (هانك) وهو يقود السيارة فى شوارع (نيويورك) التى يبللها المطر :

ـ « لا أعرف كيف أقول هذا وأبدو عاقلاً ، لكن هناك مصاص دماء فى (مانهاتن) ، وهو يعذب ضحاياه ثم يحولهم إلى نسخة منه .. هذا واضح .. »

سألته وهى تفكر فى احتمالات هذا الذى قاله :

ـ « وباقى الفتيات ؟ ماذا أصابهن ؟ »

ـ « لاحظى أنك لم تجدى أثرًا لثقوب فى أعناقهن .. يبدو أنه لم يجد الوقت الكافى ليبدأ .. لكن خططه المستقبلية واضحة لأى طفل .. »

ثم أشعل لفافة تبغ ليبدو خشنًا محترفًا مثل (همفرى بوجارت) فى الأفلام وقال :

ـ « سوف أجرى تحرياتى .. لابد من معرفة من كان يقابل هذه الفتاة .. هناك خيط وسوف أقتفيه حتى النهاية .. »

وانفجر يسعل ، وقد نسى للحظة أنه لم يدخن من قبل قط ..

انتزعت لفافة التبغ من فمه ودستها بين شفتيها ، وقالت :

ـ « هناك جثة مزقها الرصاص فى المشرحة .. هذه هدية جميلة تتركها لى »

ـ « كح كح .. إن تقريرك سيتضمن أن الفتاة ماتت بالرصاص على كل حال . لن تغير الأمر بضع رصاصات إضافية .. »

وتوقفت قرب مقره ، فوثب من السيارة وهو ما زال يمسك بصدره ويسعل ..

ـ « كح .. كح ! أرجو أن تعتنى بنفسك .. سوف أتصل بك قريبًا .. »

هكذا قادت سيارتها وسط الشوارع وهى غارقة فى التفكير ..

مصاص دماء هنا ؟ ماذا لو عرف هؤلاء الماشون فى الطرقات .. الغارقون فى ضباب المشاكل اليومية .. الذين خرجوا من ضباب العمل من التاسعة للخامسة ليدخلوا ضباب البحث عن مغامرة فى بار أو مرقص ..

ماذا لو عرفوا أن هناك مصاص دماء طليقًا هنا ؟

وصلت البناية التى تسكن فيها فدخلت المرآب بالسيارة ..

كان الهدوء يغمر المكان ، والإضاءة شبه خافتة .. هذه هى اللحظة المناسبة لمهاجمة أى شخص تريد .. كانت تهاب هذه اللحظة بشكل خاص .. تتوقع فى كل ليلة أنها الأخيرة ..

على كل حال ، ماتت كل الفتيات السابقات فى لحظة كهذه ..

تفتح باب سيارتها وتخرج ..

هنا حدث بالضبط ما قال عنه المثل العامى : « اللى يخاف من العفريت يطلع له .. »

هذا المثل يتحقق معها بشكل ملح مستفز فعلاً ..

لكن العفريت هنا لم يكن عفريتًا مجازيًا .. كان عفريتًا حقيقيًا وثب عليها من فوق سيارة فان .. سقطت أرضًا وهو فوقها .. ووجدت الفرصة كى ترى ملامحه بوضوح .. الوجه الشيطانى المتقلص .. الأنياب البارزة .. الوجه المجعد شبه المتعفن .. هذا مصاص دماء تلفزيونى جدًا من الذين يملئون الحلقات التلفزيونية رخيصة الإنتاج على غرار (بافى) و(الملاك) .. إلخ .. حيث لا تسمح ميزانية الماكياج إلا بـ 23.5 دولار وبالتالى لا مفر من شراء أقنعة الهالوين البلاستيكية للتمثيل بها ..

لكنه مخيف بما يكفى على كل حال ..

صرخت ووجهت لكمة فى وجهه ، فقط لتستقر قبضتها بين أنيابه .. ضربته بالقبضة الأخرى وهى تواصل الصراخ .. لو بلغ هذان النابان عنقها فلسوف ..

هنا شعرت أن شيئًا يتدخل لصالحها .. طار المسخ من فوقها ليرتطم بالجدار .. وبصعوبة تبينت سمات ذلك الشاب الذى يهاجم مصاص الدماء .. يضربه .. يركله .. يمارس نوعًا من الحركات البهلوانية تذكرك بـ (بافى) فعلاً ..

كما قلت ألف مرة من قبل ، فإن وصف القتال مضيعة للوقت والورق .. لكن دعنى أخبرك فقط أن هذا الفتى الذى أنقذها كان بارعًا بحق .. لقد تحاشى كل هجمات المسخ وأوسعه ضربًا .. ثم فى النهاية أخرج نصلاً طويلاً ورفعه فى وضع أفقى ثابت ، فى اللحظة

التى هجم فيها مصاص الدماء .. انغرس النصل كاملاً فى صدر هذا الأخير ، وأطلق صرخة تذكرك بعواء ذئب ينتزعون قدمه حيًا ..

ثم سقط على الأرض ..

كانت ترتجف ذعرًا وتوترًا لكنها استطاعت أن ترى وجه مخلصها ..

لقد جاءها والدم يلوث وجهه مع ابتسامة عابرة يحاول بها أن ينسيها كل هذا الفزع ..

ـ « هل أنت بخير ؟ »

أسمر اللـون أشعث الشعر يلبس عوينات لا تعرف كيف لم تتحطم بعد كل هذا الصراع .. ثم تلك اللكنة .. لا يمكن ألا تعرف طريقة نطق المصرى للإنجليزية مهما حاول أن يخدعك ..

قال وهو يمسح الدم عن وجهه :

ـ « اسمى (عماد) .. (عماد التونى) .. »

* * *

10 ـ أديب مع بعض التحفظ ..

هنا فقط قاطعت (عبير) تدفق السرد ، وصاحت فى غيظ :

ـ « لماذا تقحم نفسك فى الأحداث ؟ »

قال وهو مستمر فى الكتابة :

ـ « منذ لحظات كنت متضايقة لأن القصة لا علاقة لها بأى شخص عربى .. والآن متضايقة لأن بها شخصًا عربيًا .. منذ متى لم تسمعى قصة جحا وابنه والحمار .. ؟ »

ـ « الأمر يبدو سخيفًا .. أعرف أن (إيلرى كوين) كان يفعل الشىء ذاته ، وكانت بطلات القصص يصحن : أنت رائع فاتن يا مستر (كوين)! بينما الرواية كتب عليها أنها بقلم (إيلرى كوين) ، لكن (إيلرى كوين) لم يكن رجلاً واحدًا .. كانا شخصين يكتبان تحت هذا الاسم ! »

ـ « لماذا نقلد الغرب فى كل شىء ؟ لماذا لا يكون لنا عالمنا المتفرد ويجعل كاتب القصة نفسه بطلها ؟ »

جلست أمام شاشة الكمبيوتر وراحت تطالع ما كتبه .. لم تحب قط القراءة على شاشة الكمبيوتر وبدت لها اختراعًا سخيفًا .. لا شىء يعادل الكتاب الصديق الصدوق الذى تحمله معك حيثما ذهبت .. كتاب له رائحة وتتثنى أطرافه ويصفر ورقه مع الزمن ..

قالت له فى حذر :

ـ « لكن القصة مثيرة إلى حد ما .. ربما كانت لديك الموهبة بعد كل شىء .. »

ـ « هذا ما قاتلت طيلة حياتى ليصدقه الناس .. »

ثم أزاحها من دون رفق عـن الشاشـة ولوحـة المفـاتيح ، وطقطق سلاميات أصابعه ليعاود الكتابة بطريقتـه المميزة .. حرف فى كل مرة ..

* * *

حكى (عمـاد) لــ (باتريشيا) كل شىء عن حياتـه وهمـا يمشيان فى شوارع (بروكلين) ..

الهجرة إلى الولايات المتحدة أرض الأحلام .. الزوجة الأمريكيـة التى ملأت قلبه سعادة باعتباره نجح أخيرًا فى اقتناء تلك التحفـة الأنيقة الشقراء .. (عبير) فى شخصيتها الأمريكية شقراء فاتنة كالعادة لهذا لم تر فى كلامه شيئًا غريبًا ..

الزوجة الأمريكية التى ملأت حياتـه سعادة ، ثم ملأتهـا بؤسًا عندما أعلنت أنها تحب زميلها فى العمل وتم الطلاق .. هو الآن يدفن أحزانه فى العمل ..

كان فى المرآب يوقف سيارته عندما سمع صراخها ورأى ذلك المسخ .. لا يعرف مـا هو ولا لمـاذا هو هنـا ، لكنـه باعتبـاره مصريًا إذا سمع استغاثة أنثى يضرب ثم يفهم ..

ـ « وتحمل سيفًا على سبيل الاحتياط ؟ »

ـ « نحن فى نيويورك حيث يجب أن يحمل المرء سيفًا حتى لا يموت بسيف آخر .. »

حكت له عن نفسها .. بدا لها وسيمًا رائعًا .. إنه الحلم الذى تحلم به الفتاة منذ تعرف معنى لفظة (رجل) حتى تصير عجوزًا وتموت ..

* * *

هنا توقفت (عبير) عن القراءة وصاحت فى غيظ :

ـ « ألا ترى ما يستفز فى هذا كله ؟ أنت وسيم رائع وحلم كل فتاة ! ألم تجرب شراء مرآة ذات مرة ؟ »

قال وهو يواصل الكتابة :

ـ « هذه قصة خيالية .. خ .. ى .. ا .. ل .. ى .. ة .. كل شىء مسموح به .. لو كنا ندخل عوالم الخيال كى يلغوا أبانـا ويضربونـا ونقىء دمًا ونموت ؛ فليذهب الخيال إلى الجحيم .. »

ابتسمت (عبير) لهذه الفكرة .. ثمـة قصـة قيمـة لــ (تشيكوف) كانت فيها الخادمة الفقـيرة تلعب مـع طفلهـا الرضيـع .. تحلم معه .. فكانت تقول له : ستكبر .. ونذهب معًا لنعمل أجيرين فى بيوت الأثرياء !

هذا هو الخيال الوحيد الذى سمحت البائسة به لنفسها .. وهو شىء مفهوم على كل حال ..

* * *

هكذا بعد ساعتين كانت علاقة حميمة قد ولدت بينهما ..

الفتى الوسيم الشاعرى القادم من بلاد النيل حيث تزأر التماسيح فى ضوء القمر على ضفاف النيل (أو هـذا ما أقنعت نفسها به) والطبيبة الأمريكية الحسناء ..

يمشـيان معًا فى (برودواى) وسـط اللافتـات البراقة .. ألف مسرح وألف دار سينما تعرض ألف فيلم ساحر ..

يدخلان عوالم الظـلام فـى (سـنترال بـارك) .. هنـاك ينتظرك الزنوج من تجار المخدرات حاملين هراواتهم ليحطموا رأسك ، فقط قبل أن ينقض عليهم رجال عصابات (بورتريكو) ليهشـموا رءوسـهم بمواسيرهم .. كم أن هذا رومانسى جميل !

تقول له :

ـ « هل تذكر أغنية (الرولنج ستونز) الشـهيرة ؟ أمشـى فـى سـنترال بـارك .. أغنـى بعد مـا يحل الظـلام .. فيحسبنى النـاس مخبـولاً .. أتعثـر فى خطـواتى ، أترنح فى الطرقـات .. يسألنى النـاس : تـوْ .. تـوْ .. مـاذا دهـاك يا فتى ؟ ربـاه ! أنـا افتقدك يا طفلتى ! »

قال فى حيرة :

ـ « لم أسمعها .. كان يمكنك أن تريحى نفسك بدلاً من غنـاء كل هذه الأوبرا .. »

يدق هاتفها المحمول فتتوقف تحت شجرة وترد :

ـ « (كورنويل) .. »

كان هذا صوت مفتش الشرطة :

ـ « (باتى) .. أين أنت ؟ هناك جثة جديدة .. رجـل اخترق سيف صدره فى مرآب .. نعم .. نفس الأسلوب لكنه رجل هذه المرة .. »

على الأقل هذا خبر تعرفه ..

أردف المفتش بلهجة متحفظة قلقة :

ـ « (باتى) .. لا أعرف كيف أقول هذا .. الرجل المتوفى قـد تشوه وجهه كثيرًا .. مسحة شيطانية عامة على ملامحه ، لكنـى أعرف من هو .. لا شك فى هذا .. إنه (هانك) ! »

ـ « ماذا تقول ؟ »

ـ « نعم .. (هانك) .. أنا آسف .. »

(هانك) تحول إلى مصاص دماء وهاجمها فى المرآب .. هنـاك من هاجمه بعد ما فارقها .. أو لعلها الفتاة فى المشرحة ظفرت بـه وهى لم تعرف ..

أغلقت الهاتف وتهيأت للبكاء ، عندما سمعت صوت (عماد) يقول فى الظلام :

ـ « كنت مضطرًا لهذا كى أتعرفك .. كى أعرف ما تعرفين ! »

دققت النظر فأدركت أن (عماد) لم يعد هو ..

صاحت فى جزع :

ـ « أنت من مسخه إلى مصاص دماء ! »

ـ « وقتلته على الفور أمامك ! كانت تمثيلية متقنة ! الآن أنت وحدك فى بقعة خالية من (سنترال بارك) مع مصاص الدماء الذى بدأ كل شىء ! هل يثير هذا فزعك ؟ جميل .. جميل ! مصاص الدماء يحتاج إلى بعض السادية .. يحتاج إلى ضحية راجفة باكية .. ما رأيك فى بعض التوسل ؟ »

وفتح فمه لتبرز أنيابه الهائلة ..

ثقبان فى عنقها .. نهاية سريعة .. ثم عودة دائمة لتصير مثله !!

اصرخى .. اصرخى يا بلهاء !

لربما كان هناك فى مكان ما (عماد) حقيقى باسل ينقذك من أنياب هذا .. ينقذك فعلاً هذه المرة !!

* * *

11ـ إحباط وادمصاص ..

فرغت (عبير) من القراءة .. وظلت تعبث بالمؤشرة على صفحة الكتابة بعض الوقت عاجزة عن أن تقول شيئًا ..

ثم نظرت له فى عينيه ، وقالت بصراحة :

ـ « لم أحب النهاية ! »

ـ « لم أجد نهاية أفضل .. »

ـ « قرأت لناقد أدبى أمريكى يقول : على المرء ألا يبدأ أبدًا كتابة قصة لا يعرف كيف سينهيها ! »

ظل ينظر لها بعض الوقت ، وفجأة فعل آخر شىء تتوقعه .. أغلق الملف ، ثم ضغط بلا رحمة ولا إبطاء ولا تردد على زر (مسح) ..

لا محاولات للتصحيح ولا أعذار ..

فقط نهض من دون كلمة وبصوت مبحوح ، قال :

ـ « كنت على حق .. »

ظلت جالسة فى الغرفة الضيقة الكئيبة وحدها ، لا تفهم حقًا هل هى قاسية إلى هذا الحد .. هل يجب أن تحب ما لا تطيق أن تحبه ؟ من المؤلم أن يتعب المرء بلا طائل ، لكن لماذا يصر على أن يكون لاعب كرة وقدماه مكسورتان ؟

ثم ما كل هذا التناقض تجاه نفسه ؟ تارة يتحمس ويجعل نفسه أروع شخصية فى الرواية وبطلها الأوحد ، ثم يتضح أنه مخادع ومصاص دماء ؟ إنه يكره نفسه ويحتقرها بقدر ما يحبها .. هذا التناقض الذى يمكن أن يكتب عنه علماء النفس مجلدات ..

ثم فطنت للحقيقة المرعبة : إنه يكره نفسه لأنه يحبها بجنون ..

* * *

لم يكن القلق هو السبب ..

الموضوع أنها كائن بشرى وتحتاج إلى دخول الحمام من وقت لآخر .. لهذا نهضت وتحسست طريقها فى شقته بحثًا عن الحمام ..

بالواقع كان الأمر سهلاً ، لأن هذه لم تكن شقة .. لم تكن وكرًا كذلك .. كانت غرفة واحدة وممرًا ضيقًا فيه باب موصد .. هو باب الحمام طبعًا ما دام المطبخ فى نهاية الممر ..

مدت يدها ودقت مرة ومرتين .. لا أحد بالداخل .. أدارت المقبض فانفتح بتلك الطريقة المريبة التى تنفتح بها مقابض أبواب غرف الموتى ..

كان الحمام ضيقًا ومن الواضح أنه لم يُجدّد منذ خمسين عامًا ، والغريب أنه لم يكن متسخًا .. على الأقل احتفظ (عماد) بلمسة من الرقى .. هذا حمام من عصر ما قبل القيشانى والسيراميك معًا ، يصلح أن تقتل فيه (شجرة الدر) زوجها بالقباقيب .. لا يوجد مغطس وإنما هناك حفرة ببالوعة فوقها

دوش .. وكل شىء يصب فى النهاية فى تلك البالوعة التى تتسع لكل شىء .. فوق المغطس هناك صيدلية من (الصاج) الصدئ من الطراز الذى ثبتت مرآة على بابه ..

فى حفرة المغطس وجدت (عماد) راقدًا على الأرض مبللاً .. كان فاقد الوعى والنظارة على الأرض جواره ..

أدركت ما حدث لأن الفتى ليس فى سن الإصابة بالجلطات المخية ..

كلا .. لا توجد موسى ملوثة بالدم .. هناك علبة أقراص فارغة جواره .. وهناك كوب ماء نصف ملىء ..

على العلبة قرأت كلمة (ترانكسين) .. لا تعرف ما هو لكنها خمنته من الإنجليزية القليلة التى تعرفها .. اللفظة تشبه لفظة Tranquilizer فلو كنا نحن الأمة التى تخترع الأدوية لكان اسم هذا الدواء (مهدئين) ..

هزت الفتى وصفعته قليلاً .. وبدأ الذعر يتملكها .. هل تأخرت عليه ؟ بهذا تكون قتلته مرتين .. مرة لأنها لم تحب قصصه ، ومرة لأنها لم تلحق به عندما غادر الغرفة ..

أصدر أنينًا فاطمأنت إلى أنه لم يمت .. على الأقل حتى اللحظة ..

- « (عماد) .. أنا خائفة .. لا أعرف ما يجب عمله .. سوف أستدعى الإسعاف .. »

قال من بين أسنانه ومن دون أن يفتح عينيه :

ـ « لا داعى .. لا أريد أن .. أتورط مع .. الشرطة .. »

ـ « إذن أتركك تموت وأتورط أنا ؟ »

ـ « لا .. لن أموت .. »

ثم أشار لها إلى خارج الحمام .. عدة مرات تنظر إلى حيث يشير فلا تفهم .. فى النهاية قال :

ـ « المطبخ .. كوب من الشاى الثقيل .. جدًا .. »

ـ « فهمت .. تريد أن (تعدل دماغك) قبل الذهاب للجحيم .. »

ـ « فقط افعلى ما أقول .. عندما يغلى الشاى احرقى لقمة كبيرة من الخبز واسحقيها فى الشاى .. »

ـ « جميل .. وبعد هذا ؟ »

ـ « كوب كبير من محلول الملح .. أسرعى ! »

هرعت إلى المطبخ الحقير وهى مغتاظة .. لم تعرف من قبل أن إنقاذ المنتحرين يستدعى كل هذا الجهد .. جهد البحث عن الشاى .. جهد البحث عن لقمة خبز وسط هذه المجاعة .. جهد العثور على كبريت فى بيت صاحبه لا يكف عن استهلاك الثقاب فى التدخين .. جهد إشعال موقد (المصانع الحربية) الذى كان فى أحسن حال منذ ثلاثين عامًا أما الآن .....

أعدت الشاى فى براد قذر وأحرقت لقمة الخبز ، وفعلت كما قال ثم عادت له فى الحمام .. أجلسته مستندًا إلى المرحاض وراحت تسقيه الشاى ..

لما اطمأنت إلى أنه بدأ يشرب هرعت إلى المطبخ وراحت تفتش عن الملح دهرًا .. صحيح أن صرصورًا أمريكيًا عملاقًا وثب من علبة فارغة فى وجهها ، فكادت تموت بسكتة قلبية ، إلا أنها تمكنت من التماسك وإعداد محلول الملح المركز ..

عادت له بكوب الملح فشربه مرة واحدة كأنه مياه غازية ، وعلى الفور ..

أووووووع !

تحول الحمام إلى مذبحة .. وقد اضطرت إلى الوثب إلى الخارج كى لا تغرق فى بحيرة القىء ..

عذاب ما بعده عذاب مر بها حتى نجح الفتى فى أن ينهض ويغسل وجهه ، ثم يتحامل عائدًا إلى غرفته فيرتمى على الحشية الموضوعة على الأرض ..

قال لها مفسرًا :

ـ « محلول الملح طريقة فعالة لإحداث القىء .. الشاى الأسود يحوى حمض التانيك الذى يؤدى لترسيب السم .. الخبز المحترق هو طريقة للحصول على الفحم المنشط الذى يدمصّ السم .. »

ـ « تعنى (يمتص) السم ؟ »

ـ « بل (يدمصّ) السم .. تذكرى دروس الكيمياء يا حمقاء .. الفارق بين absorption و Adsorption هو الفارق بين الامتصاص والادمصاص .. »

كان من الغريب أن يتمتع منتحر بهذا العقل الحاضر ، وهذه العقليـة العلمية .. على قدر علمها هذا أول منتحر ينقذ نفسه بهذه الكفاءة ..

أخيرًا عقدت يديها على صدرها وقالت :

ـ « هل لى أن أفهم معنـى الذى حدث .. ؟ هل ابتلعت السم لأن القصة لم ترق لى ؟ »

ـ « بل ابتلعت السم لأننى فاشل فى كل شىء حاولته .. لـم أستطع أن أكون مهندسًا ولم أستطع أن أكون شاعرًا أو روائيًا .. لم أستطع أن أقلع عن التدخين .. لم أستطع أن أنعم بقصة حب .. »

قالت ولم يكن قولها فى موضعه :

ـ « حتى الانتحار فشلت فيه .. »

ثم تذكرت أين هى وما عليها أن تقوله ، فقالت :

ـ « كنت ستهلك هلاكًا أبديًا .. من حسن حظك أننى هنا .. »

غطى وجهه ، وأدركت من اهتزاز كتفيه أنه يبكى ..

قالت له :

ـ « سأبتاع لك بعض الطعام ثم أتركك حتى الصباح .. فقط عدنـى ألا تكرر هذه الحماقة .. فى الصباح سوف أجد لك مخرجًا .. »

* * *

12 ـ فريال تنتوى الموت ..

(عماد التونى) ..

الفتى الذى ولد من جديد ..

جاءته (عبير) فى الصباح حاملة معها طعامًا وشايًا ورزمة أوراق .. نفس الطراز الذى وجدته فى تلك المجلات الفنية (برغم أنه لا داعى لها لأنه يكتب على منسق الكلمات الآن) .. ومع الطعام والأوراق ابتاعت له بعض الأمل الجديد ..

كان جالسًا على مكتبه يجرع القهوة الثقيلة .. كانت قد نصحته بهذا فهى تعرف خطورة الاستسلام للنوم فى الليلة التالية لابتلاع أقراص مهدئة .. يبدو أنه أفرغ جالونات كاملة من القهوة لأنه كان محمر العينين ، وكانت يداه ترتجفان بلا انقطاع ..

لم يكن من الممكن خارج (فانتازيا) أن تزور شابًا يعيش وحده ، لكنها وجدت نفسها فى (فانتازيا) تتحرك فى خيوط قصة أكبر .. وبرغم كل شىء لم تكن تعرف جيدًا متى ينتهى الخيال ومتى يبدأ الواقع .. هل فى الواقع تزور عوالم فانتازيا التى كتبها مؤلف مغمور ؟ ، أم إن المؤلف نفسه جزء من نسيج فانتازيا ؟ هل هى (عبير) حقًا أم صورتها فى القصة الخيالية ؟

قالت له محاولة أن تطرد هذه الهواجس عن ذهنها :

- « ما زالت الحياة جميلة .. ما زال بوسعك أن تخدم المجتمع حتى لو لم تصر أديبًا .. »

قطع نصف رغيف كاملاً ، ودس فيه حبة فلافل مع نصف ثمرة طماطم ، وألقى بهذه الشطيرة المرتجلة فى فمه ثم قال :

- « من قال إننى أعمل عملاً يحقق أى دخل ؟ إننى أبيع الكتب وهذا لا يجعلنى مليونيرًا .. »

قالت مسترجعة كل أفلام (ماجدة) و(فاتن حمامة) التى تلعبان فيها أدوار الملائكة :

- « سوف تعود للكتابة ، وهذه المرة سوف تحقق نجاحًا .. »

فكر قليلاً ثم قال وقد انتفخ خداه كأنه الزمار فى حفل ذكر شعبى :

- « وعن أى شىء أكتب ؟ »

- « فكر فى حياتك .. فكر فى فشلك .. فكر فيما حدث أمس .. »

يبدو أنها كانت مقنعة ، لأنه راح يفكر فى حياته .. يفكر فى فشله .. يفكر فيما حدث أمس ..

كان أول ما قاله هو أن كوم علبة التبغ فى قبضته وقال :

- « أعتقد أن علىّ أولاً أن أتخلص من هذا السم .. »

وعند الظهيرة أحضر مقعدًا وضعه أمام شاشة الكمبيوتر ، واستحضر أيقونة (مكتب ميكروسوفت) ثم بدأ يكتب الحروف الأولى من قصته الشامخة ..

* * *

لم تكن (عبير) تعتقد أنها ستحبه ..

فى الحقيقة لم تعتقد أنها ستحبه أبدًا ..

لكن ذلك الشعور الغريب تحرك فى أعماقها .. ولم تكن بلهاء لقد خمنت أنها تحمل نحوه عاطفة أمومة متزايدة .. هذا ليس حبًا بالمعنى المعروف للكلمة ، وهو نوع من الرقة البالغة كالتى تغمرنا عندما نرى قطًا صغيرًا عاجزًا جائعًا بللته الأمطار يقف تحت سيارة .. إنه شعور بأن قلبك يتمزق باختصار شديد ..

هذا كائن عاجز .. معقد .. يمقت نفسه لأنه يحب نفسه .. وهذا المقت اتخذ أبعادًا جدية خطيرة .. هذا دفعها إلى أن تتبناه معنويًا ..

كل شىء فى هذه المغامرة يذكرها بقصص أخرى .. متى يبدأ الواقع ومتى ينتهى ؟ هل هى فى عالم الواقع أم أن هذا الواقع جزء من قصة أخرى ؟ حتى هذا الموقف الذى تعيشه يذكرها برائعة ستيفن زفايج (24 ساعة فى حياة امرأة) .. الأرملة التى قررت أن تلعب دور الأم فى حياة شاب ابتلى بحب القمار .. أحبته .. منحته الثقة بنفسه .. اعتقدت أنه شفى من القمار فعلا ، فقط لتجده غارقًا فى الديون على المائدة الخضراء ، وفوق هذا أهانها وشتمها واتهمها بأنها عجوز شمطاء نحسته ..

لكن (عماد) لن يكرر هذا معها .. لسبب بسيط .. هذا هو الواقع وليس قصة من قصص (زفايج) ..

من حين لآخر كانت تعيد تفحص الأوراق التى كتبها لنفسه .. الجداول الخيالية التى رسمها لنفسه .. اعتادت دومًا أن تشعر بالشفقة

على هؤلاء الذين يضعون جداول خيالية .. أيام دراستها كانت تضع جداول عجيبة يحسدها عليها أينشتاين نفسه .. منهج العلوم نصف يوم .. ربما ساعتان للغة الإنجليزية .. ثلاث ساعات للغة العربية .. يبقى وقت كاف من اليوم لتعلم التنس والعزف على الجيتار لو أن معها من المال ما يسمح بهذا (وهو مستحيل طبعًا) ..

فى النهاية ترى ما كتبته فتنفجر فى الضحك وتدمع عيناها ..

هل كنت بهذا السخف ؟ هل كنت بهذه البلاهة ؟

هكذا شعرت بالكثير من الشفقة على هذا الفتى ، وقررت أن تساعده على أن يحترم نفسه من جديد ..

فى المساء كانت تمشى معه على شط النيل يلتهمان الذرة المشوية ، ويتحدثان عن السبب الذى يجعل البازلاء تفسد بسرعة عندما تحفظها فى كيس بلاستيكى بالثلاجة ..

قال لها وهو يطوح كوز الذرة الذى خلا من الحبوب فصار أبيض متدرنًا كساق مجذوم :

ـ « فكرة ابتلاع الحبوب المنومة رهيبة .. أنا استجمعت من ذلك خبرات يمكن أن أستعملها فى القصة .. »

قالت وهى تنهى آخر حبيبات فى كوزها :

ـ « لحظة الموت التى نعود منها خلاقة دائمًا .. أن تذهب هناك وتعود لأن أجلك لم يحن بعد .. هذه اللحظة قد تجلب جائزة نوبل لأكثر من أديب .. »

كانا الآن فى الدقى .. رأته ينظر إلى لافتة تخص المركز الثقافى الروسى بعين مدققة .

قال لها شارد الذهن :

ـ « بدءوا دورة جديدة من تعليم اللغة الروسية .. أريد أن ألتحق بها .. لا أستطيع أن أتصور أديبًا لا يجيد الروسية التى كتب بها (دستويفسكى) و(تشيكوف) .. »

ثم صمت لأنه وجدها تنظر له شذرًا ..

ـ « هل أخطأت فى شىء ؟ »

قالت ضاغطة على أعصابها :

ـ « (عماد) .. (عماد) .. جرب أن تتغير . أرجوك .. أنت تحاول كتابة رواية .. فلتفعل ذلك ! (العقاد) و(طه حسين) و(نجيب محفوظ) لم يعرفوا حرفًا من اللغة الروسية ! »

هكذا التزم الصمت ..

* * *

قررت (عبير) أن تنهى حياتها فى تلك الليلة .

طبعًا من الواضح للقارئ أن هذا آخر شىء تريده (عبير) ، فهى متدينة ولا يمكن أن تنزلق لجنون كهذا .. ولكن مسار القصة الذى كتبه الأخ (عماد) يرغمها على هذا إرغامًا . إنه مصر على أن يقحم قصة ابتلاعه للحبوب فى قصته القادمة ..

هكذا أحضرت (عبير) علب المنوم وقررت أن تعطى نفسها مزية التراجع .. لذا لم تذب الحبوب فى الماء وإنما قررت أن تبتلع قرصًا تلو آخر ..

نظرت لوجهها فى المرآة .. كانت فاتنة كما هى العادة فى (فانتازيا) .. لكنها سمراء هذه المرة .. للمرة الأولى تتخلى فانتازيا عن ولع الأطفال الأحمق بالألوان حيث لا شعر إلا الأصفر ، وتعترف بأن اللون الأسود جميل كذلك ..

إن اسمها (فريال) .. هذا الجزء تعرفه ..

أمسكت بمجلة فرنسية وراحت تتسلى بتقليب صفحاتها إلى أن تبدأ الأقراص العمل .. كان هناك مقال عن إحدى ألعاب الكمبيوتر كتبه أديب برازيلى .. يبدأ المقال بهذه العبارة الغريبة :

« أين (القاهرة) تلك ؟ »

هذا غريب !

تصور أن يسأل أحدهم أين (القاهرة) بينما القاهرة خارج النافذة ملء السمع والبصر .. الهواء قاهرة .. الناس قاهرة . التماثيل والتراب وسحابة الدخان قاهرة ..

كانت قد فكرت فى عدة طرق للانتحار لكن طبيعتها الأنثوية نفرت من قطع شرايين اليد ومن الوثب من الطابق الخامس .. كلها طرق عنيفة مروعة ..

هكذا استقر رأيها على أقراص المنوم كطريقة تناسب ممثلات هوليوود ..

لماذا تفعل ذلك ؟ لسببين .. أولاً لأن كل شىء فى حياتها كان يشبه كل شىء آخر .. لن تكسب شيئًا بمواصلة الحياة سوى الشيخوخة وفقد الأصدقاء .. كل الموجودات سوف تكرر نفسها حتى تبهت ولا يعود لها طعم .. ثانيًا لأنها ترى الأخطاء فى كل مكان وهى عاجزة عن تصحيحها ..

وقفت فى النافذة شاعرة بأن قدرتها على التركيز تتلاشى .. نظرت إلى الشارع الصاخب .. شاب وسيم يمر تحت النافذة .. يرفع عينه فيلتقى عينها .. يبتسم .. ليس لديها ما تخسره .. بادلته الابتسامة ثم توارت داخل الغرفة ..

أزيز فى أذنيها .. رغبة فى القىء .. معدتها تعلن عن غضبها وتمردها ..

ثم غابت عن إدراك ذاتها ..

* * *

13ـ فريال لا تموت بسهولة ..

لم تمت (فريال) ..

لو ماتت لانتهت القصة بعد ست صفحات ..

لقد أفاقت لتجد الإضاءة النيون تغمرها .. هناك أنابيب تخترق جسدها ، ومعصماها مقيدان فى الفراش ، وصوت امرأة يقول لها :

ـ « لقد سقطت على وجهك فى الجحيم ، وعليك أن تفعلى أفضل .. »

أدركت أنها فى المستشفى .. لقد أنقذوها .. ومالت عليها الممرضة وقالت :

ـ « آسفة .. أعرف أنك غاضبة ، لكن هذا عملى .. أن أنقذك من نفسك وأن أعطيك مخدرًا .. »

ومن جديد أفرغت شيئًا ما فى عروقها ..

كانت تشعر ببرد شديد .. تريد أن تطلب منهم أن يزيدوا حرارة جهاز التكييف قليلاً .. كل العنايات المركزة تكون باردة قاسية ..

تغيب فى الظلام ثم تصحو فلا ترى إلا الستائر الخضر ..

* * *

فرغت (عبير) من قراءة هذه السطور على شاشة الكمبيوتر ..

ابتلت عيناها واكتسيتا بتلك الغشاوة المبتلة الرقيقة ، ثم نظرت إلى (عماد) المتوتر خلفها كأنه ينتظر الحكم عليه .. قالت بصوت مبحوح :

ـ « مؤثرة جدًا وشدتنى .. أريد بعنف معرفة ما سيحدث لتلك التعسة (فريال) .. هل ستحاول ثانية ؟ »

قال فى مكر وهو يشعل لفافة تبغه الثالثة :

ـ « انتظرى الباقى .. »

ـ « لماذا انتحرت (فريال) حقيقة ؟ هل السبب هو الخوف من ألا تتغير الحياة أو تتغير بشكل لا يحتمل؟ »

ـ « انتظرى الباقى .. »

قالت وهى تمسك بيده :

ـ « لقد أسأت فهمك .. أنت موهوب فعلاً .. لكنك أحمق .. أغرقتنى فى عوالم مصاصى الدماء والقلاع المحاصرة و(جاك السفاح) حتى شككت فى قدرتك على تقديم عمل أصيل .. »

وضع قبضته تحت ذقنه وأطلق سحابة دخان كثيفة من منخريه ، وسألها فى شغف :

ـ « ما الذى راق لك لهذا الحد ؟ »

قالت فى انبهار :

ـ « لا أدرى ! وهذا أروع ما فى الموضوع . الأدب الجيد تعرفه على الفور بلا تعريفات .. عندما ترى زهرة خلابة فأنت تنبهر قبل أن تحاول تحليل سر جمالها .. »

ثم هزت إصبعها فى وجهه محذرة :

ـ « كن حذرًا ! لا تفسد ما بدأته .. أنت خنزير وولع بإحباطى .. »

ـ « سأحاول .. سأكون حذرًا .. »

* * *

عندما أفاقت (فريال) من الغيبوبة كان هناك طبيبان شابان أحدهما فارع القامة والآخر قصير .. وعرفت من كلامهما أنها فى مستشفى نفسى ..

لقد أجريا معها تحقيقًا شبه بوليسى عن كل شىء ، كما سألاها أسئلة عن كل شىء فى القاهرة ..

قالت فى ضيق :

ـ « هل أنا متهمة فى قضية أمن دولة ؟ »

قال أصغر الطبيبين سنًا :

ـ « لا أريد أن أثير ذعرك ، لكن الحقيقة هى أن الحبوب التى تعاطيتها أتلفت قلبك بلا رجعة .. »

نظرت له فى جزع غير فاهمة ، فقال :

ـ « عما قريب يتوقف هذا القلب عن الخفقان ! »

ـ « متى ؟ »

تحاشى النظر لها ، وقال :

ـ « أعتقد أن خمسة أيام زمن معقول !! »

كانت (عبير) تفهم معنى هذه النظرات المتعاطفة الشفوق .. معناها أنه لا يعبأ بها على الإطلاق . بل هو مستمتع أتم الاستمتاع بما يقوله وما يثيره فى نفسها من رعب .. معظم هؤلاء الذين يتكلمون عن مصائب الآخرين فى قلق كأنهم جزعون فعلا ، يستمتعون بمهمتهم بشدة .. هذا يشعرهم أنهم أفضل حظًا ..

قررت ألا تكافئه بهذه الكيفية ؛ لذا قالت فى انتصار :

ـ « إذن أنا قد نجحت ! »

قال فى خيبة أمل كما توقعت :

ـ « نعم ! »

شد ما ساء وضعها بهذه الأخبار ! ربما كان الموت سهلاً عندما يأتى بسرعة ، لكن انتظاره خمسة أيام أمر يفوق الاحتمال البشرى ..

طيلة حياتها تنتظر شيئًا ما .. تنتظر عودة أبيها . تنتظر وصول القطار .. نتيجة الامتحان .. الهاتف .. العطلة .. الآن كتب عليها أن تنتظر الموت ..

خرجت للنزهة فى فناء المستشفى حيث يتناثر المرضى النفسيون .. لا يوجد شىء يذكرها بالسينما هنا .. لا أحد يقوم بحركات مخبولة وحده .. كل واحد يمشى فى عالمه الخاص ..

راحت تمشى وسط المكان الذى كان أقرب إلى ثكنة عسكرية ..

هنا اقتربت منها امرأة مخبولة فى الثلاثين من عمرها وقالت :

ـ « إن الجميع هنا مجانين ، لكن ما الجنون على كل حال ؟ هناك من اتهم أينشتاين بالجنون عندما قال إن الفضاء يمكن أن يتقوس .. الجنون بئر .. هناك قصة قديمة عن ملك عاش مع أسرته فى قصر مزود ببئر يشربون منها .. خارج القصر تلوثت البئر التى يشرب منها الشعب بالجنون .. كل من شرب منها جن .. هكذا أصيب الملك بالذعر وأرسل حراسه يمنعون الناس من الشرب .. لكن لا جدوى .. كل الشعب شرب والكل صار مخبولاً .. وجد الملك نفسه محاصرًا عاجزًا عن عمل شىء ، هنا جاءته زوجته وقالت له : تعال نشرب من تلك البئر لنصير مثل الناس ! هل فهمت يا عزيزتى ؟ علينا أن نتظاهر بأننا شربنا من البئر ! »

أدركت (فريال) فى رعب أن قلبها لم يعد كما كان فعلاً ..

إنها متقطعة الأنفاس سريعة اللهاث ، تصاب بدوار لدى أى جهد ..

حاولت أن تندمج مع المجنونات الأخريات فى المستشفى .. كانت هناك مجموعة من النسوة تطلق على نفسها اسم (الأخوية) .. وقد حاولت الاندماج معهن لكنهن كن أقرب إلى البرود والسخرية منها ..

لا مشكلة .. بعد أيام لن تحتاج إلى غسيل أسنانها ، ولا تمشيط شعرها ، وبالتأكيد لن تتضايق بسبب هذه التفاهات ..

* * *

هنا توقفت (عبير) عن القراءة ..

لقد امتلأت عيناها بالدمع حتى لم تعد قادرة على رؤية شىء ..

راحت تردد العبارة فى ذهنها : « علينا أن نتظاهر بأننا شربنا من البئر ! »

يا للعمق ! يا للروعة ! كانت تحسب الأدباء كفوا عن ابتكار عبارات كهذه منذ زمن سحيق .. منذ أغمض (تولستوى) عينيه لآخر مرة ..

اسمه (عماد التونى) .. وهو عبقرى .. لم يكن أحد يعرف هذا حتى هو نفسه .. كانت عبقريته تحت طبقة من الفشل والملل ، ثم راحت هى تنبش بأناملها حتى فجرت الينبوع ..

نظرت له فى عينيه حيث كان يقف وراءها يدخن لفافة تبغ فى عصبية ..

ـ « هل أحببت القصة ؟ »

قالت له وصدرها يعلو ويهبط :

ـ « لا أهتم بالقصـة الآن .. فقط أردت القـول إننى أحببتك أنت ! »

وقبل أن يرد فرت من الغرفة والمنزل كله ..

* * *

14ـ أربع وعشرون ساعة فى حياة (عبير) ..

هذا هو ما كانت تخشاه ..

الشـفقة والأمومـة تحولتـا حبًا .. ربمـا هـو الانبهار بعبقرية هذا الفتـى ، وربمـا هـى الألفـة تجـاه شـخص تـراه يوميًا وبهذه الكثافة .. يقول علماء النفس إنك لو جمعت كنج كونج مع الغولة على جزيرة واحدة فإنهما سينتهيان إلى أن يرى كل منهما الآخر أجمل من رآه ويهيم به حبًا ..

كانت تشعر على كل حال أنها تحقق شيئًا ، وأن حياتهـا ليست بلا جدوى ..

ويوم عادت لـه بعد اعترافهـا الأخير ، ظلت مطرقـة لـلأرض تخشى أن تلتقى عيناها به .. لكنه أراحها فقال :

ـ « أنا فعـلاً أقـاوم هـذه التغيرات السحرية فى نفسى .. لقد بدأت أنسى (غيداء) وهذا غريب .. »

ثم أضاف فى خجل :

ـ « أريدك أن تفخـرى بى .. ولكـن لـم أعـرف بعـد سـبب طلاقك .. »

قالت فى حزم :

ـ « تلك قصة تطول ربما أحكيها يومًا ما .. أما الآن فعليك أن تخبرنى بما حدث لـ (فريال) .. »

* * *

على أنه توقف عن الكتابة مدة يومين ..

زارته فى داره فوجدت جهاز الكمبيوتر مطفأ ولم تجده فى الشقة .. الحقيقة أنه أعطاها المفتاح لتدخل وتخرج متى شاءت ، ولطالما تساءلت عن كونها هى بالذات تفعل هذا ، ثم فطنت إلى أنها فى فانتازيا .. لا توجد طريقة لمتابعة ما يحدث إلا بأن تتاح لها هذه القدرة ..

أين ذهب ؟

قررت أن تفتح الجهاز لترى ما هنالك .. ليس هذا تجسسًا لأننا فى فانتازيا كما قلنا ..

وجدت ملفًا جديدًا على سطح المكتب .. ملفًا يحمل عنوان (أغنية) ..

فتحت الملف فطالعتها أسوأ محاولة لنظم قصيدة غنائية قابلتها فى حياتها .. كانت مجموعة من مقاطع ملفقة من عدة أغان لشعراء كبار .. لا شىء ينم عن موهبة أو براعة ..

وماذا عن القصة ؟

فتحت ملف القصة لتعرف ما حدث لـ (فريال) فوجدت أن هذه الأخيرة ما زالت تواجه مشاكلها مع (الأخوية) وتحاول إقناع الممرضة بأن تسمح لها بعزف البيانو ..

بيانو فى مصحة عقلية مصرية ؟ يبدو الأمر غريبًا .. لكن من يدرى ؟ بالتأكيد هناك واحد ..

هذا الأحمق لم يضف حرفًا للقصة منذ يومين ، وانهمك فى كتابة أغان رديئة ..

غادرت الشقة مغضبة ، ونزلت فى الدرج فقط لتسمع صوت (عماد) قادمًا مع عدد من الناس .. ربما كان معه اثنان أو ثلاثة ..

لم يعد من مفر لذا وقفت حيث هى بينما صعد إلى مكانها (عماد) ومعه شابان .. أحدهما له شعر طويل يتدلى على كتفيه والآخر له ذيل حصان طويل ..

هؤلاء من الفنانين أو المهتمين بالفن .. هذا واضح ..

رآها فصاح فى مرح :

ـ « (عبير) .. ملهمتى ! أقدم لك .. »

طبعًا لم تذكر أى اسم قيل لها ، لكنهما كانا من خريجى الموسيقا العربية .. قال لها (عماد) همسًا وهو يفتح باب الشقة :

ـ « سأطلب منك أن تعدى لنا بعض الشاى .. أنا آسف .. هذه المقابلة مهمة لى .. »

ـ « شاى ثقيل أهشم فيه لقمة خبز محروقة ؟ »

ـ « ليس لهذا الحد .. ليكن شايًا كأى شاى آخر .. »

هكذا جلس الثلاثة فى غرفة (عماد) يتكلمون .. بينما وقفت هى فى المطبخ تحاول تذكر أين ذهب كل شىء .. كانت تمقت إعداد الشاى طيلة حياتها ، وكانت تلخص الموقف لمن يطلب منها إعداده : « أنا أصنعه أقرب لمنقوع الأحذية .. »

لكن الوقت لم يكن مناسبًا لهذه التعليقات الآن ..

تسمع الجدل الدائر فى غرفة (عماد) وأحد الجالسين يقول :

ـ « إذن سوف ننتج هذا على نطاق واسع .. »

يقول (عماد) فى حماس :

ـ « لقد درست الفكرة جيدًا طيلة الأشهر الستة الماضية .. لا توجد ثغرات .. فقط عليكم أن تجربوا .. »

عادت حاملة الشاى على صينية مهشمة متسخة إلى غرفة الكمبيوتر .. كان الفنانان جالسين على الأرض فوق بساط رث ، بينما جلس (عماد) على المقعد المواجه للكمبيوتر وعيناه تلمعان فى حماس .. والعرق يسيل منه بغزارة ..

لما دخلت سألها :

ـ « أنت تعرفين الآلة الموسيقية التى اخترعتها .. أليس كذلك ؟ سوف ننتجها على نطاق تجارى واسع بمساعدة هذين العبقريين .. »

قال أحد العبقريين المذكورين :

ـ « نحن لم نر إلا رسمها .. تقول إنها ستكون خليطًا من الجيتار والعود والقانون .. أضمن لك رواجها بشرط أن تكون جيدة فعلاً .. »

ما هذا الكلام الفارغ ؟

قدمت الشاى لكل واحد فى يده ، ثم قالت فى صبر ، وهى تمسح قاع الصينية المبتلة فى ثوبها :

ـ « أية آلةٍ موسيقية ؟ لم أعرف أنك مهتمّ بالموسيقا على الإطلاق .. »

اتسعت عيناه تهديدًا بما معناه (ليس الآن يا حمقاء) وقال :

ـ « أنت لم تكونى معى منذ فترة .. إن الموسيقا هى حياتى وتسرى فى عروقى كالدم .. هذه الآلة سوف تجعلنا مليونيرات .. »

هذا هو كل شىء .. الداء الذى لا ينوى التخلُّص منه أبدًا .. داء البدء فى شىء جديد كل لحظة .. داء إلقاء بذور المانجو ثم عدم

الانتظار حتى تنمو .. بل الانتقال فورًا إلى حقل آخر يبذر فيه بذور العنب .. فى كل لحظة هناك مشروع جديد .. لعنة برج الجوزاء الأبدية ..

وبعد كل هذا ليست الموسيقا لعبة .. إنها علم قائم بذاته .. أن تزعم أنك ابتكرت آلة موسيقية جديدة لهى جرأة تبلغ مبلغ الجنون ، ولهذا لم يصدق هذان الشابان أن هناك كذبة بهذا الحجم ..

لما انصرفا أخيرًا على وعد باجتماع آخر ، وقفت جوار الكمبيوتر تنظر له فى ثبات ، ثم قالت :

ـ « (عماد) .. لقد تحولت أمس إلى شاعر غنائى .. واليوم صرت موسيقيًا ومخترعًا .. غدًا تقرر أنك خُلقت لتكون جراح مخ وأعصاب .. »

نفث سحابة كثيفة من الدخان ، وقال فى حماس :

ـ « لا تمزحى يا (عبير) .. أنت لا تعرفين كم أعشق الموسيقا .. »

ـ « كما عشقت اللغات الأجنبية والرواية و(غيداء) .. »

ثم قالت فى لهجة مرعبة :

ـ « (عماد) .. افتح الكمبيوتر واستكمل روايتك ، ودَعك من هذا الهراء ! »

تلاقت العينان لفترة ، ثم خفض بصره وقال فى ذلة :

ـ « ليكن .. لقد نسيت أننى فاشل يلمس الذهب فيصير نحاسًا .. »

ثم دفن لفافة التبغ التى يحملها فى بقية كوب الشاى :

ـ « أقسم بالله العظيم ألا تلمسك شفتاى ثانية ! »

ومد إصبعه يضغط زر فتح الكمبيوتر ..

* * *

فى المساء قرر (عماد) أن يصير خبير شطرنج وأحد أساتذته العالميين ..

زارته فى الصباح فوجدت أنه وضع رقعة شطرنج كبيرة (بعض القطع مفقود لذا استعمل قداحة بدلاً من الملك الأسود ، ومبراة بدلاً من الحصان الأبيض) .. وجوار الرقعة عدة كتب شطرنج من التى تصف الصراع العنيف بين (ب3 فو) و(ب4 رم) ..

هذه هى الهواية الجديدة إذن .. لا تريد أن تتحول إلى أم أو معلمة تطارده كلما أهمل الاستذكار ، لكنها فى الوقت ذاته تكره أن تراه يبدد الشىء الوحيد الذى بدأ يحقق فيه شيئًا ..

هكذا أمسكت بالشطرنج والكتب ووضعت كل شىء فى كيس بلاستيكى تخلَّصت منه فى القمامة ..

من المرعب أنه لم يعلق عندما جاء من الخارج ..

لم يتساءل ..

لقد نسى الأمر برمته وانهمك فى شىء آخر .. كأنه لم يقرر أن يكون أستاذ شطرنج ليلاً ، وحتى وجود شطرنج قد نسيه .

جلس إلى شاشة الكمبيوتر ، وواصل الكتابة ..

* * *

15ـ صدمة فى الحمام ..

كان د . (عصام) مدير المستشفى غارقًا فى خواطره الكئيبة ..

لم يشعر قط بأنه يفعل شيئًا مهمًا للمجتمع .. السجون تعلم السجناء ارتكاب الجرائم ، والمستشفيات العقلية تعوّد المرضى على عالم غير حقيقى يمارسون فيه كل شىء ، ولا يتحمّلون مسئولية .. لهذا تكون أسوأ لحظات حياته عندما يعود المرضى لذويهم ..

كان لديه مخرج واحد لمشاكله هو أن يجد علاجًا للجنون .. هذا هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يعيد احترامه لنفسه ..

كان يعتقد أن مسبب الجنـون مادة كيميائية أطلق عليها اسم (فيتيرول) ، وقد قدمت له السماء فرصـة لا تعوض بحالـة تلك الفتاة (فريال) التى حاولت الانتحار ..

لقد قابل أبويها أمس ، وقالا إنهما لم يدخرا شيئًا من أجل جعلها سعيدة .. ككل أبوين لمجنون كانا يزعمان هذا ، وكان يعرف أن الجرعات العالية من السعادة تجعل الناس عاجزين عن التعامل معها ..

(الفيتيرول) مادة سامة يصنعهـا العقل البشرى فى الأحوال المخيفة .. وهو يؤمن أن أباطرة الرومان وآل (بورجيـا) كانوا يعرفون كيف يحصلون على هذا السم نقيًا ، ويقدمونـه للضيوف ..

فيما بعد عرف الناس كيف يقتلون بعضهم بالمسدسات ، لكن ذكرى هذا السم ذى المذاق المر ظلت فى الأذهان .. لهذا يشعر المرضى النفسيون بالمرارة ..

سرعان ما يفقد المريض الرغبة فى الحياة .. فى المقاومة ..

كان هو يحقن (فريال) سرًا بمادة اسمها (فنتول) تسبب لها أعراض الذبحة الصدرية ، وكان هذا ضمن تجربة يريد البرهنة عليها : الشعور بالدنو من الموت يغرينا بالمقاومة ..

لكنه كان يعرف يقينًا أن قلب الفتاة سليم ولم يتأثر بالعقارات ..

* * *

من الغريب أن (عبير) اندمجت مع القصة لهذا الحد ..

كانت تعتبر نفسها مدربة كأى ناقد كتب محترف على قراءة أى شىء وعدم الانفعال به ..

لكن هذه القصة هزتها بشكل ما ، وشعرت بالتماهى مع (فريال) .. (فريال) الوحيدة البائسة التى سئمت الحياة ، ثم أدركت أنها لا تريد الموت .. لكن بعد فوات الأوان .

لكن هذا الأحمق لا يواظب على الكتابة ..

أمس غادر البيت فى ساعة مبكرة ولم تره حتى المساء ، وفى النهاية وجدت مجموعة من المذكرات ملقاة على الأرض ..

(قواعد بيانات أوراكل وتطبيقاتها) !

كانت تعرف هذا الموضوع من زوجها السابق .. معنى هذا أن هذا المخبول قد قرر أن يكرس حياته لدراسة الكمبيوتر ..

فوجئت به عائدًا إلى الدار وفى يده لفافة تبغ .. لفافة تبغ يدخنها بعد ما أقسم للمرة الألف أنه لن يلمسها ..

الحق أنها شعرت بقدر من الشفقة .. كلنا نحمل فى أعماقنا جزءًا من (عماد التونى) .. كلنا نحلم بالكثير مما لا نقدر على تحقيقه لأننا لا نعرف أنفسنا جيدًا .. والفارق بين ما تصورناه عن أنفسنا والحقيقة مرعب ..

قال لها فى جزع وهو يدفن لفافة التبغ تحت حذائه :

ـ « لم أعرف أنك هنا .. »

قالت فى ضيق :

ـ « أتابع مدى تقدمك فى قواعد البيانات .. »

قال فى حماس بائع السيارات المستعملة :

ـ « لا تتصورى كم يكسب من يجيدون هذه القواعد .. إن دول الخليج تتخطفهم .. »

ـ « تتخطفهم بعد دراسة أسبوع ؟ »

وأمسكت بأول كتاب .. كان ضخمًا يذكرك بالكومود جوار فراشك .. ورق براق .. كلام دقيق .. لغة إنجليزية لعينة .. كما توقعت كانت هناك خطوط على أول صفحة .. بعدها صارت الصفحات نظيفة تمامًا ..

قالت دون أن تنظر له :

- « سأدخل الحمام .. »

قال دون أن ينظر لها كذلك :

- « سأخرج لأجلس على المقهى بعض الوقت .. »

هناك فى الحمام وقفت تحدق فى المرآة فوق الحوض بعض الوقت ..

الحق أنها بدأت تكره نفسها . لقد صارت مُملة مزعجة لحوحًا لكنها ما زالت تعتقد أنها قادرة على مساعدته .. شد ما تمقت وجهها المتعصب اللزج فى المرآة .. لابد أن الفتى صار يكره رؤيتها ..

فتحت الصيدلية بحثًا عن أى نوع من المسكنات ..

كانت هناك علبة مغرية الشكل كتب عليها (نعناع) .. علبة من أقراص النعناع .. مدت يدها تفتحها ، وقد تداعت لديها ذكريات طفولة محبَّبة ، ففوجئت أن ما بها ليس تلك الأقراص عطرة الرائحة .. هذه كبسولات جيلاتينية ..

لماذا يحتفظ بها هنا ؟

وجدت الجواب على الجانب الآخر من العلبة .. شريط لاصق صغير ثبته هناك ، وكتب عليه بخطه الأنيق (ترانكسين المكان الجديد) ..

ما معنى هذا ؟

لماذا لم يحتفظ بالمهدئ فى علبته ؟

لسبب بسيط .. هو أنه أفرغ العلبة ووضعها على الأرض جواره عندما (انتحر) .. كان يريد أن تدخل الحمام لتجد علبة فارغة تحمل اسم المهدئ جواره على الأرض .. بالطبع لم يتخلص مما بقى عنده من كبسولات واحتفظ بها فى علبة الحلوى ..

كان يمثل ..

كل هذه المسرحية والشاى الثقيل والخبز المحترق كانت لإثارة اهتمامها أو شفقتها ..

حتى الانتحار فشل فيه أو زيفه تزييفًا !

كان يخدعها .. وقد سقطت فى الشرك بغباء ..

* * *

وقفت فى وسط الغرفة الضيقة تتأمل كل شىء ..

المكتبة التى ازدحمت بـالكتب .. الجدران المصفرة .. شاشـة الكمبيوتر .. واقى الشاشة الذى تنهمر الشلالات فوقه ..

لقد عجزت عن معاونة هذا الفتى .. كـانت أمها تقول لهـا إن الرجل هو :

1 ـ شىء مكسو بالشعر وتنبعث منه رائحة التبغ .

2 ـ قابل للإصلاح مهما كانت طباعه قذرة سيئة منحطـة ، لكنها لم تسمع قط عن رجل كذوب أو بخيل تم إصلاحه ..

3 ـ لا توجد ملاحظة ثالثة ..

لا توجد طريقة لإصلاح الكذب ، ومـن الغريب أن حكمـة أمها البدائية هذه التقت مع نصيحـة مماثلـة لعالمـة اجتمـاع أمريكيـة قرأت رأيها فى مجلة ما ..

(عماد) ليس كذوبًا .. إنه فقط خفيف الطبع لا يعرف حقيقة نفسه ..

ربما كان قابلاً للتبدل .. من يدرى ؟

اتجهت إلى المكتبة وراحت تتأمل الكتب .. كما كـانت تتوقـع معظم هذه الكتب لم يفارق موضعه منذ دهور .. (عماد) يكـدس الكتب لأنه سيقرؤها يومًا ما عندها يصير مثقفًا فعلاً ..

لكنه لا يفعل هذا أبدًا ..

لا يوجد وقت ولا بال رائق ..

هناك كتاب متوسط السمك يبدو فى مسـتوى أعلـى مـن الكتب المجاورة ، ويبدو أنه يُسحب من المكتبة أكثر من سواه ..

ماذا أثار انتباهه فى هذا الكتاب بالذات ؟

تنـاولت الكتـاب وقد قررت أن تعيده إلى موضعه بالضبط كى لا تزيد شعور الفتى بأنه مراقب ..

العنوان هو (فيرونيكا تقرر أن تموت) ..

قصـــة لأديب برازيلى شـاع ذكـره منـذ عـام أو عاميـن هـو (بـاولو كويليو) ..

لماذا يهتم بهذه القصة بالذات ؟

فتحـت الصفحـة الأولـى وبـدأت تقـرأ .. تقـرأ عـن الفتـــاة السلوفاكيـة (فيرونيكا) التى قررت أن تقتـل نفسـها بالأقراص المنومـة .. وراحت تتسلى بقراءة مقال كتبه (كويليو) نفسه عن (أين تقع سلوفانيا) بالضبط ؟

لكن (فيرونيكا) لم تمت .. نقلت لمستشفى الأمراض العقلية و ...

هذا الكلام يبدو مألوفًا .. أين قرأته من قبل ؟

ثم نظرت إلى العنوان .. لهذا اختار اسم (فريال) .. لأنه أقرب اسم وجده لـ (فيرونيكا) .. خياله لم يجد اسمًا مستقلاً بعيدًا عن الاسم الأصلى ..

الأديب المحترم (عماد التونى) قام بنقل رواية الأديب المحترم (باولو كويليو) حرفيًا واكتفى بتغيير الأسماء ونسخها على الكمبيوتر ..

كل ساعات التفكير ..

كل الإرهاق الذهنى والصراع ..

كل الطعام الذى التهمه على حسابها ..

كل الدموع التى ذرفتها وهى تطالع القصة على شاشة الكمبيوتر ، حتى أصيبت بالتهاب الملتحمة ..

كان بوسعه أن يعطيها الكتاب ويريحها ..

والغريب أنه مجنون .. لا أحد يسرق قصة لـ (كويليو) الذى سلطت عليه كشافات الاهتمام الإعلامى .. الذى جاء إلى القاهرة كى يحصل على مستحقاته عن رواية (السيميائى) .. لا أحد يسرق من (كويليو) وينجو بفعلته هذه ..

لم تنتظر أكثر ..

لقد انتهت أربع وعشرون ساعة فى حياة امرأة ، ووجدت أن خير ما يمكن عمله مع هذا الطراز من البشر هو تركه .. إنه هو أشنع عقاب لنفسه ..

تركت الكتاب مفتوحًا جوار الكمبيوتر ليراه بوضوح عندما يعود .. وإن قدرت أنه سيكون مشغول الذهن بستوديو التحريك الذى ينوى إنشاءه .. ستوديو تحريك أو فرقة غنائية أو جمعية لاستعادة رأس (نفرتيتى) ..

أغلقت باب الشقة ..

ولم تدر أنها تبكى بحرارة إلا عندما سال المخاط على ياقة ثوبها ..

عندها وجدت يد المرشد تمتد لها بمنديل ..

قال وهو يبتسم :

ـ « للمرة الأولى منذ زمن لم آت لك وأنت تقفين جوار جثة محتضر ! »

قالت وهى تمسح أنفها :

ـ « من قال العكس ؟ هذا مشهد وفاة آخر .. »

ـ « هل عرفت القصة التى أنت فيها ؟ »

ـ « للأسف عرفت .. لقد عشت فى العوالم الساحرة لشخص بلا موهبة .. »

وفى الخارج كانت العاصفة تشتد ..

لم يكن هناك قطار ، وقد تساءلت عن مصير جهاز الكمبيوتر فى هذه اللحظات ..

ترى ماذا حدث له ؟ ماذا سيحدث له ؟

* * *

هناك أكثر من أسطول غارق فى التاريخ .. هناك أسطول بونابرت الذى غرق عند سواحل (أبو قير) و (الأرمادا) الأسبانية وأسطول (كليوباترا) الذى دمر فى موقعة (أكتيوما) .. لكننا فى القصة القادمة نتحدث عن أسطول عملاق لدولة عظمى دمرته طائرات (زيرو) اليابانية على سواحل أجمل جزر المحيط الهادى .

تمت بحمد الله

فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

روايات مصرية للجيب

اللُّغز

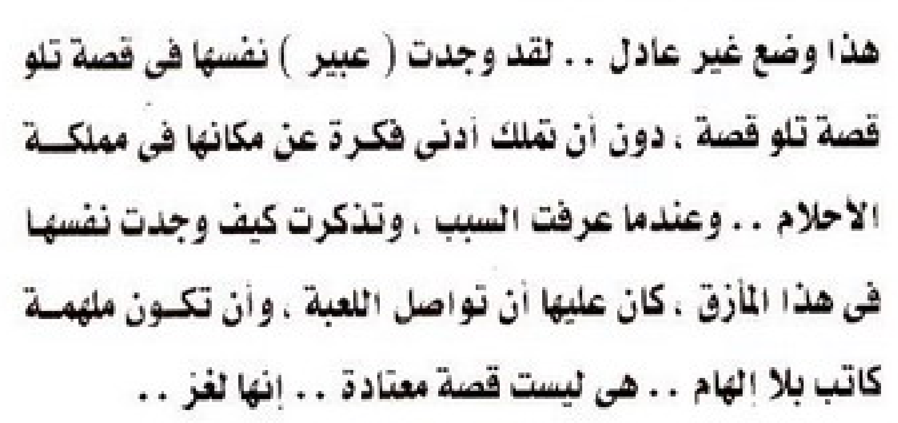


د. أحمد خالد توفيق

أن تقرأ كتابا تمزق غلافه ..

أن تشاهد فيلما سينمائيا لم تـر ملصقاتـه ولم تـر عناوينـه ..

أن تحضـر محاضـرة لا تعـرف موضوعهـا ولم تـر عنوانها على لوح الكتابة .. إنه لغز ...



هذا وضع غير عادل .. لقد وجدت (عبير) نفسها فى قصة تلو قصة تلو قصة ، دون أن تملك أدنى فكرة عن مكانها فى مملكـة الأحلام .. وعندما عرفت السبب ، وتذكرت كيف وجدت نفسها فى هذا المأزق ، كان عليها أن تواصل اللعبة ، وأن تكـون ملهمـة كاتب بلا إلهام .. هى ليست قصة معتادة .. إنها لغز ..

العدد القادم

يوم احترق الأسطول

الثمن فى مصر 300
وما يعادلـه بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

